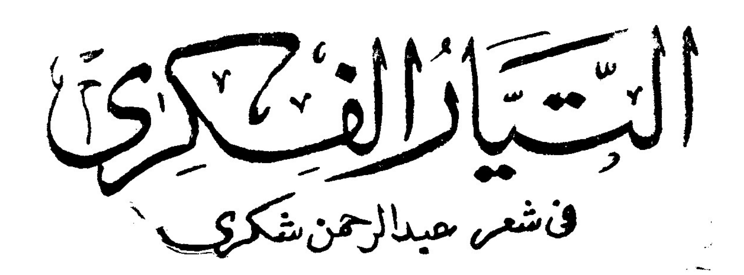


تأليف

الدكتور محمد السعدى فرهود

القــاهرة

١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م

المكتبة السعدية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه الأمين ، محمد بن عبد الله خاتم النبيين والمرسلين ، وعلى آله وصحبه و تابعيه بإحسان .

وبعـــد :

فهذا هو الكتاب الثانى فى دراستى لشعر الشاعر « عبد الرحمن شكرى » ، وهو ثالث ثلاثة رادوا حركة التجديد فى الأدب العربى – فى مصر – فى الثلث الأول من هذا القرن العشرين ، وهم : « شكرى » و « إبراهيم عبد القادر المازنى » و « عباس محمود العقاد » . ويشاركهم فى ريادة هذه الحركة « خليل مطران » – اتفق معهم فكرا وإن انفرد بالعمل وحده دونهم .

والكتاب الأول – الذى سبق كتابنا هذا فى النشر سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م – تضمن - كما يوحى به عنوانه – (الاتجاهات الفنية فى شعر عبد الرحمن شكرى) ، وجعلناه مدخلا لنقد شعره كله : وصفا ، وتحليلا ، وتقويما ، والحكم له أو عليه . وانتهينا فيه إلى عدة أسس ، ارتسمت معالم على طريق شعره :

الأساس الأول – أن للشعر وظيفة متعددة الجوانب ؛ فهو فيض العواطف الفردية والإنسانية ، وهو صدى القيم والمثل والظواهر الاجتماعية .

الأساس الثانى – أن للشعر ثلاثة مجالات يتحرك فيها ؛ فهو يتحرك بين الحقائق النفسية ، والنماذج الطبيعية ، والتجاريب البشرية .

الأساس الثالث — أن الشعر يعد منظاراً للحقائق ومفسراً لها ، ومن هنا يستخدم فى تحليل العواطف ووصف حركاتها ومدى استقبالها لتلك الحقائق .

الأساس الرابع — أن الشعر صناعة ، فهو بحاجة إلى رصيد من الثقافة ينفق منه الشاعر ، كما هو بحاجة إلى استعداد وطبع وقدرة ذاتية .

الأساس الخامس — أن وحدة القصيدة أمنية تمناها دعاة التجديد ، ومن رأى « شكرى » أن القصيدة فرد كامل . وأن قيمة البيت فى الصلة بين معناه وموضوع القصيدة .

الأساس السادس — أن الشعر من الفنون ، وله صلة بالذوق .

وهذا الكتاب الثانى يستقل بنفسه وبموضوعه ؛ يتناول (التيار الفكرى فى شعر عبد الرحمن شكرى) . ويضم سبعة فصول :

الفصل الأول — الوجود — وللشاعر رأى فى عظمة العالم ، وفى خطر تسلط القدر ، وشيوع الشر ، وانتماء الرحمة إلى هذا الشر بسبيل ما . وللشاعر رأى فى النفس فتناولها تناول الشاعر بها وبما يهتاجها ويلذها ، ورفض أن تكون لذتها منفصلة من لذة الجسم ، ولهذا يخلد نوالها فى منطق حلولى ، ويحاول أن يفرض فكره على الحياة كما يحاول أن يكشف لغزها ، ويقيس الزمن بمقياس الإنسان ، وإحساسه بأمور نفسه وبالمرئيات وسائر المحسوسات وما يعتريها من تحول .

الفصل الثانى — الحياة والموت — والشاعر يحاول أن يقنعنا بأن الحياة فن ، وأننا إنما نعرض ما فى نفوسنا على مسرح العيش ، وأن كلا يمثل دوره فى حياته ، وأن التاريخ لم يحفظ لنا — من عهد آدم — إلا الشقاء والأسقام والأحقاد والحروب . والحياة — عند الشاعر — مفروضة عليه ، يلعقها على الرغم منه ، فإذا ود أن يغمر فيها نفسه فما يلبث أن تصده عنها قيوده الثقيلة ، ويرى نفسه على مشارف الموت عاجزاً أشل حيران . يحاول أن يبدد حيرته ميت ينشر ؛ ليجيبه عن سر ما بعد الموت .

الفصل الثالث – الغيبيات – وفى شعر شكرى عن الغيبيات كثير من المواقف المتعاكسة والمناقضة أحيانا ، وفيه شطحات خيالية ، ترتد إلى يأس وقلق يستحوذان على نفسه ، ويميلان بها إلى الجانب الضعيف من الإيمان ، فتظل شاردة لا ترتد إلى حظيرة اليقين .

الفصل الرابع الخطرات الصوفية – وفيها يبدو شاعرنا صافى الإحساس ، يتدرب على الطهر النفسى ، ويرضى بغذاء القلب من الحزن والسرور ، ويدعو إلى هزم الشيطان ، ويستطيب الراحة الأبدية عندما تنتهى وظيفة الحياة .

الفصل الخامس – المجتمع الأمثل – وقد كان هذا المجتمع هدفا لكافة المفكرين ، وصاحبنا « شكرى » يدلى بدلوه فى هذا المجال ، وينشد مجتمعاً يسوده العقل والطهر والكمال والحرية والإخاء والمساواة والعدل والسلام وشريعة الله .

الفصل السادس – المثل العليا – وسنرى شاعرنا يتصور الحق كفاية للحياة ، وأن حركة الحق فى النفس حركة تلقائية كحركة الجنين ، فلا ينبغى أن تكتمها إرادتنا أو تخفيها ، ولا ينبغى أن يكون الحق موضع مساومة ، أو أن يتخذ وسيلة للنفع ، وإلا انهارت الديانات وتفككت عرا الفضيلة . وعنده أن الحرية مظهر للحق ، وأن الجمال بهاء الحياة .

الفصل السابع – حكمة الحياة – ولشكرى شعر كثير خالص للحكمة ، ضمنه خواطره وتجاريبه ، وعرض فيه خلجات نفسه فى مختلف المجالات ؛ فى مجال الصداقات ، والسلوك ، والحظوظ ، والخبرات ، وسعادة الأفراد والمجتمعات ، وما يحكم هذه المجالات من أربطة الخير والشر .

وهذا (التيار الفكرى فى شعر عبد الرحمن شكرى) واحد من عدة تيارات ، أتيح لنا – بتوفيق من الله – أن ندرسها فى رسالتنا (شعر عبد الرحمن شكرى –

دراسة وتحليل ونقد) ، وهى رسالة علمية أجازتها كلية اللغة العربية فى جامعة الأزهر لدرجة « الدكتوراه فى الأدب العربى الحديث — مع مرتبة الشرف الأولى ، فى السابع والعشرين من شهر يونيه سنة سبع وستين وتسعمائة وألف .

ومن المنى أن نحقق ماعزمنا عليه — بعون الله — من نشر الدراسات ال[illegible] لمنا[illegible] فيها بشاعرية « شكرى » واتجاهاتها .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؟

القاهرة { المحرم ١٣٩٦ هـ
يناير ١٩٧٦ م

محمد السعدى فرهود

الفصل الأول

الوجود

هذا العالم – الإنسان – النفس
الزمن – النشوء والارتقاء

أولا – هذا العالم :

فى الوجود مجال واسع للتأمل ، والوجود عند « شكرى » عظيم مثلما هو عظيم عند غيره من الشعراء الذين أتيح لهم أن يجيلوا فيه أنظارهم ، وتطغى عظمة الوجود عنده على :

كل ما فى الوجود مما يريق الدمع ، أو يستميح شجو الرحيم[1]

وهو يرى أن عظمة الوجود ليس لها حد ونهاية . وأن الإنسان عليه أن يحس ضآلته إزاء الوجود ،[2] وذلك أمر يفرضه عليه قانون الوجود نفسه[3] رضى الإنسان ذلك أم كرهه ؛ فالقدر متسلط علينا ، ولقد نرى فى تسلطه إيلاما وسخطا وشرا ، فإذا رفضناه رفضنا السعادة ؛ لأن الإحساس الذى يحس السعادة لابد – فى رأى « شكرى » – أن يحس الألم ، ولأن رفض الشر فى الحياة رفض للخير ؛ لأن للشر قيمة ، فالرحمة التى قد تدعو إلى السخط ما كانت تكون لولا الشر . وفى هذه المعانى نظم « شكرى » قصيدة (الملك الثائر) ، فى ثوب قصصى ، يحكى فيه عن

---

(١) عظم الشر وعظم الوجود : ج ٢ . ص ١٨٦ من ديوان عبد الرحمن شكرى – طبعة ١٩٦٠ . وسنسميه فيما بعد (ديوان شكرى الجامع)
(٢) شكرى . الاعتراف . ص ١٠٢
(٣) شكرى . الصحائف . ص ٣ وما بعدها

ملاك ثار من حزن ، يسائل الله فى خلق الشر ، ويطلب إليه أن يبطل حجة الشر بكلمة حكيمة ، وإلا فإنه — أى الملك — يتمرد على البقاء فى النعيم ، ويود لو أذن له فى الهبوط إلى الأرض ؛ ليداوى جروح الكوارث والمصايب ، التى ابتلى بها البشر ، فلما أذن له سعى إلى الناس ، وحاول أن يجنبهم جشع التنافس ، وسلطان العادات القبيحة ، ولكن الناس ثاروا به ثورة عارمة ، ورموه بالدنس ، وصلبوه ، وتهكموا به ، فلم يملك إلا البكاء ، وجاء إبليس يهون عليه جهده ، فازدادت ثورة الملك واستنزل على نفسه شقاء الخلق قاطبة ، وأجيب إلى سؤاله ، فهامت روحه ، و . طارت إلى الملأ الأعلى فما لقيت لها قراراً ، لا فى الجحيم ولا فى الفردوس . وبهذه النهاية الأليمة أشعرنا « شكرى » رأيه أن الوجود لا يستغنى عن الشر وأن الرحمة تنتمى إلى الشر ، لأن الوجود لو أخلى منه ما عرفت النفس الإنسانية الرحمة .

يقص الشاعر هذه الصورة العاتية . . يبدؤها بقوله (١)

نبئت أن ملاكا ثار من حزن   يسائل الله فى خلق الرزيئات

ويطوى هذا التساؤل مناجاة فرضها تحكم الشر — أى انتشاره — مما استوجب الرجاء أن يوحى الله بجوامع كلمه للفصل فى هذا الشر الذى استشرى ، وانتشرت منابره فى الأرض ، وعلت الدعوة من فوقها للحمق والجهل والباطل والسفه وهى مطاياه الهوج ، ومن خلال هذه الأباطيل ترنو النفوس المستبصرة إلى ضوء الحقيقة ، وتتعطش العيون الحائرة إلى رؤية الحقيقة بعد أن كلت من طول النظر إلى زيف الحياة ، وحتى تحمد هذه النفوس العيش تنظر أن يرضى الله عنها ، ويعيرها لحظات الصدق :

تحكم الشر ، فابعث منك هاتفة   من الجوامع ، ترضى فى المناجاة

---

(١) الملك الثائر — ح ٧ ص ٥٢٧ من ديوان شكرى الجامع

الأرض منبره؛ وهو الخطيب بها ، يدعو النفوس إلى هوج المطيات
فارحم مسامع لم تسمع نجيك ، أو نفساً لضوئك ترنو فى الخصاصات
وارحم عيونا إلى مرآك ظامئة ، آبت من النحس، فى شك، كليلات
إذن أعرها لحاظا منك صادقة تدحر لها العيش، محمود الصحيفات

ويعلن الملك الثائر أنه يرفض النعيم ، ويأبى الخلود ، طالما وجد الشر متسلطا على دنيا الناس ، والشقاء ضربة لازب :

فما الخلود ولا الفردوس من أربى ولا كمال لمعصوم السجيات
حتى أرى الناس :لا دمع ولا حزن ولا شقاء بإجرام وغمات

واستأذن الملك فى أن يهبط إلى الأرض ، يحزن لأحزان الناس ، ويبرئهم مما ألم بهم من جروح المصايب والكوارث ، ويجاهد فيهم ، حتى يردهم إلى التقوى ، وأتاه صوت من السماء يأذن له بالهبوط إلى دنيا البشر ؛ ليدعو إلى الخير ، ويجعل الخلق الأعلى موردهم ، ويداوى كلامهم ، فلعل ميلهم إلى الدنيات لا يوافق طباعهم .

اهبط إلى الناس ، واندبهم إلى خلق كما تشاء على تقوى وإخبات
وارغب بهم عن شرور أنت ناقمها وداو ما اسطعت كلم المصمئلات
أوردهم (الخلق الأعلى) ؛ لعل لهم إلى الدنيات طبعا غير منصات

وقيل لهذا الملك :

فإن فشلت فلا غرو ؛ فإن لنا فى الخلق حكمة مخبوء العلامات

وسعى الملك الثائر مسعى كبيراً نحو خير البشر ، ولكنه اصطدم بما هم فيه من جشع التنافس وبالعادات المتأصلة فى نفوسهم ، فكان فيهم كمن يطلب المحال :

سعى إلى الناس ساع نحو خيرهم يذر للخير أرواحاً بكيات
فيا لسعدهم لو أنهم جنبوا ما يجنب السعد من حرص المباراة

عزيز عاداتهم للشر رائدهم ... كم قدسوا العاد تقديس الديانات
تبغى المحال؛ فتبغى الخير أجمعه؛ ... هيهات ـ لو عزيت نفس بهيهات

وسخط الناس على ناصحهم هذا ؛ لأنه بنصحه إياهم يكشف عيوب أنفسهم ، فعليه إذن أن يحمل عنهم — بدلا منهم — آلام شقائهم :

كشفت عيب نفوس أنت ناصحها ... فاحمل عن الخلق آلام الشقاوات

وثاروا به كالغيلان ، وتزعمهم فى الثورة كل عريق فى الجهالة والحمق ، واتهموه بما فيهم من سوء الخلق ، ومزقوه بأظفارهم كما تمزق الوحوش الفواتك فرائسها ، وعلقوه على جذع شجرة ، وتهكموا به وبدعوته ، ورجموه بالحجارة رجماً أنكى منه دعاواهم الزائفة عليه وعلى مسعاه :

ثارت به الناس كالأغوال يقدمهم ... إليه كل عريق فى الجهالات
وحملوا خلقه من سوء خلقهم ... وكم رموه بأدناس الرمايات
ومزقوه بأظفار ، كما خضبت ... فواتك الوحش من دامى الفريسات
وعلقوه على جذع ، وقيل له : ... اصعد كما رمت فى مرقى السجيات
ما راعه أن رأى الأشرار ترجمه ... وإن توجع من وقع النكايات

وما راعه أن رأى الأشرار ترجمه ، فهذا يتكافأ مع منطقهم ، وإنما راعه أن يظلمه الأبرار الأخيار ، فيخدعوا عن دعوته ، وينصاعوا للسعاية فيه ، فبكى ألماً لما رأى من بغضهم الخير ، مما لا ينتظر مثله إلا من عدو الخير :

حتى إذا ما رأى الأبرار تظلمه ... غرارة . انصياعاً للسعايات
بكى لبغض ذوى خير ، وما منيت ... نفس بأوجع منه فى العداوات

وجاءه صوت من الجحيم ، ناداه إبليس يهون عليه . ويتعلل بالمشيئة الإلهية ، أن الشر يطويه الخير ، ويعتد نفسه شقياً بآثام البشر وزلاتهم :

ناداه فى النار إبليس ، فقال له : هون عليك ولا تولع بإعنات
قد شاء ربك . إن الشر عدته فى صيغة الخير ؛ فى قدر وميقات
أنا الشقى بما لم أجنه أبداً من خلق نفسى ، ومن آثام زلاتى

وأعرض الملك الثائر عن إبليس ، واتجه إلى ربه يستنزل لعناته عليه وحده ، ويحمل عن الخلق شقاءهم ؛ ليطهروا هم من الآثام ، ويبتغوا الخير ، فما استجيب له ، وهنا نزعت روحه ، فطارت تنشد فى الملأ الأعلى مستقراً ، فما وجدت لها فى الجحيم ولا فى النعيم قرارا ، فأصابتها الحيرة :

تخلفت روحه كالطير سابحة فى الجو تنشد مخضر النباتات
طارت إلى الملأ الأعلى فما لقيت لها قرارا ، ولم تظفر بمهواة
لا فى الجحيم ولا الفردوس مسكنها حيرى المسالك من فقد القرارات

وجاءه صوت من السماء أن البشر يربحون من كوارث دنياهم ، وأن الشر والخير قرينان لا يرجى افتراقهما ، وأن العقل البشرى إنما ينمو بسبب كفاحه آلام الحياة وشرورها ، فالذى يريد حياة لا شر فيها يريد إنسانا لا عقل له ، وكذلك الفضائل إنما تنمو لأنها مرصودة لمحاربة الشرور ، ولو خلت الحياة من الشر ما عرفت النفس الإنسانية الرحمة :

الخلق للخلق ربح ؛ لو فطنت له ؛ كمغنم الحى من أسلاب أموات
والشر والخير لا يرجى افتراقهما فارفض-إذا اسطعت-نعمائى ولذاتى
حتى العقول ، وحتى الفضل أجمعه ؛ ولذة النفس — فى بذل المروءات
برحمة قد نماها الشر تنقمه ورحمة المرء من وخز المصيبات
فالشر للخير مردود ، وإن أسيت منه النفوس بأنات وآهات

ثم ماذا ؟ عليك أن تنفض يدك من البحث ، فإنك غير مدرك سر الكون :

وباحث سر عيش غـــير مدركه كالطفل ينشد أفـــلاك السموات

وللشاعر رأى آخر فى الرحمة ، وإن كان متصلا برأيه الأول بسبب ، فالرحمة عنده دواء لعالم الشر ، ولـكنها تـكون ضعفا إن أصابت من لا يراها. وفى هذا يحكى لنـا حكاية الحطاب الذى رأى حشرة ضعيفة ، فأشفق عليها ، وحماها ، فلدغته لدغة الخب الخادع ، فأخطأته ، وتعلم منها أن السوء يعمى النفس . ومن هذه الحـكاية الرمزية ، يركز الشاعر على بناء الوجود على الخديعة ، وأنه مفـكوك العرا، وأنه يجب ألا يحمد العقلاء ظاهر ما يرون ، فتركبهم الغفلة والبلاهة . اقرأ مع الشاعر حكاية الحطاب والحشرة)(١) :

خرجت من حجرات الأرض والعين تراها
ذات ذل وخشوع ، تحسب الخير نماها
داسها العابر قدما ، فبى لا يُخشى أذاها

فرآها حاطب يسعى لحـــاج قد بغاها
قال بالظن — وقدما كان ما ظن سفاها —
قال : لا يسعى إلى الشر ضعيف قد تناهى
بلغ الإشفاق منه مبلغا . حتى حماهـــا

قالت الحية قولا حجة فيها عراها
إنما الحمد قيود البُله ، مفكوك عُراها
بُنى الـكون على الخدعة ، لا دين سواها
كل نفس ذات مكر ، حين تستدنى مُناها
كم مداج وجد الشرَّ مطـايا ، فامتطاها

---

(١) ج ٤ — ص ٣٤٤ من ديوان شكرى الجامع

بلغ القصد ، ولمّا يعبد التقوى إلها
بلغ النجح ، ولمّا يُبلغ الحسنى رضاها

لذعته لذعة الخبّ ، فأخطاه أذاها
فرماها تحت رجليه : هوانا ، وقلاها

ليت وطأ ما عداها ، ليت طرفاً مارآها
رُبّ خِبّ دفنته تحت أرض قد حثاها
لا تُصب بالخير نفساً ، ليس للخير هواها
قد يُضل السوء ، حتى تبلغ النفس عماها
فترجى كل خير فى الذى فيه رداها

إنما الرحمة ضعف ، إن تصب من لا يراها !

ثانيا — الانسان :

والإنسان — محور هذا الوجود — يراه « شكرى » راغباً فى الشر وفى الخير ؛ لما بينه وبين الحيوان والربوبية من صلة ونسب ، فهو بينهما كالأرجوحة ، يمل ويأمل ، ويشجن ويطرب ، ويشوق إلى ماضى حياته ، وينشد فى المستقبل أحلامه ، وسيضنيه آخر الأمر تنقله وتقلبه ، لأن الزمان قد اتخذ قلبه منزلا ، ونفسه ملعبا ، فهو — أى الزمان — يحركه على مسرح الحياة . يقول الشاعر عن هذا الإنسان[١] .

حيوان مهذبٌ ؟ !	أم إله معذبٌ ؟ !
صرّح الخيرُ والأذى	فيه ، والخير أغلب
فإلى العجم نسبة	وإلى الله ينسب
وهو فى الشر يرغب	وهو فى الخير يرغب

(١) الانسان والزمن : ج ١٣٦/٢ من ديوان شكرى الجامع

وله دون شـــرة في الليـالى مـؤنب
وله دون خـــيرة في الليـالى مهـذب

ثم يتساءل الشـاعر عن أمانى الإنسان وأطماعه وعن رغباته فى حيـاة أكمل من حياته الحاضرة ـ أتـكون فى الحقيقة تذكراً للحياة الماضية وشوقا إليها . يقول الشاعر :

فهـل هـذه المـــنى والمساعى تقرب[1]
لحيـاة قبـل الحيـا ة ، وعيش لا يكذب

* * *

تذكر النفسُ حالها فيه ، والحالُ تعجب
لجنـــاب موطـّـأ واقتـــدار مُحبَّب
ولها عنــد أمسها فى ضحا اليوم مطلب
ومـلال فى يومهـا ، وطمـوح ، ومعتب
ولهـا كل ساعة شجن . أو تطـــرب
مثلما أذكر الغـريـ ـب حبيبا : تَـغَـرُّب
مثلمـا هـاج للغـريـ ـب جوى الحزن: مغرب

ويذكر الشاعر أن مآل الإنسان أن يتنقل ؛ وما لذة العيش إلا فى التنقل ؛ وأن التغير لازم للبقاء ، وأن التطلب أصيق الحياة ، والزمان كالسيل الآنى يفترش ساح الحياة ويضع بصماته على أنحائها :

فالمـآل التنقـل ، والمـآل التقـــلب
والبقـاء التغـــير ، والحيـــاة التطلب

* * *

أوَ ما تبصر الزمـا ن أتيًّا لا ينضب !
وهو للعمـر مالىء ، وهو للعمر يسكب !

---

(١) فى أول هذا البيت أسقط سبب (حرفان متحرك فساكن) والقصيدة من مجزوء الخفيف

وله الكون خلعة ، يرتديها فيحجب !
وله القلب منزل ، وله النفس ملعب !

ومن هنا تأتى محنة الإنسان الأزلية ، فقد أودعه الله منذ خلقه دواعى الحياة والموت ، وبواعث الطهر والإثم ، والضحك والبكاء ، والحب والبغض ، والذكرى والأمل ، وما إلى ذلك من سائر المتناقضات فى الميل ، والوجدان ، والإحساس ، وهو إنما يدور دورة الفلك المرسومة ، دون أن يجنى شيئا غير سخرية القدر به . وفى هذا كله يترجم « شكرى » عن الشاعر الإنجليزى « سوينبرن » هذه القصيدة ، وعنوانها (عند خلق البشر) ، وهى إحدى القصائد التى لم يضمها ديوان عبد الرحمن شكرى فى طبعة سنة ١٩٦٠ . ونحن ننقلها هنا كاملة(١):

أتى فى قديم العصر ليشهد خلق البشر
زمان بكأس الدموع ، وخمر هموم وضر
ولذة عيش قصير ، له بالأسى مختمر
وأزهار صيف تروق ، وسرعان ما تنتشر
وذكرى لعهد الجنان ، ومس أتى من صقر (٢)
وحول ، وما من يد لتدفع شر القدر
وحب ، إذا ما بدا تنفس ، ثم انحسر
وصوت كظل الحياة ، وعيش كظل يمر

* * *

بها حين شاء الإله بنى قدس روح البشر
فمن دمع عين هطول ، ومن حرق تستعر

(١) نشرت فى « المقطم » : عدد ١٤/١٢/١٩٢٥
(٢) صقر وسقر (بفتحين) علم على جهنم

وما وطـأته السـنو ن ، فانهار مثل المدر[١]
ومن مثل رغو البحار ، وما دونهـا ينحـدر
ومن ذر هذا الهباء ، ومن كائن فى القدر
وما من ممـات ، ومحيا له مـنزل ، أو مقـر
برا من بكاء ، وضحك ، وبغض ، وحب بشر[٢]
وعيش له سـابق ، وبعث له منتظـــر
وحتـف له تحتـه ، ومن فوقه الحتف قر
نهار ، وليل ، وصبح ، وعمـر كيـوم يمـر
وعيش كثير العناء لجد كثير القصر

* * *

تعادت عليـه طبـاع رياح لهـا معتـور
تنفس فى شفتيـه حياة لها الجسم خدر
وحجبت النفس منه بمنطقـــه ، والنظر
ومن عيشة للمسـاعى ، ومن عيشة للفـكر
ويأثم آنـــا ، وآنا يصلى إذا ما اعتبر
يسير بنور الهدى ، ونار الهوى فى السير
وفى عمـره فسحة لمـا لذ منه ، وسر
ومكن فى عيشه ، ونال جمالا قَـدِر[٣]
ومتع من ليـــله متاع الـكرى والسهر
وكم مقـــول نابه هو النار إذ ينصهر !
تمخض عن مقصد ، له من نهاه أثر !

---

(١) المدر محركة : قطع الطين اليابس ، والمدن ، والحضر .
(٢) برا أصلها (برأ) بالهمز — أى خلق .
(٣) فى المنظوم : (ونال جمالا وقدر) . حذفنا الواو لإقامة الوزن .

وفى قلبه شهوة ، كمن كف منه البصر !
وفى عينه نظرة ، عن الموت تروى خبر !
يحوك . ويا طالما به قدر قد سخر !
ويبذر فى عيشه ، ولا يجتنى ما بذر !
حياة كحلم الرقا د، أم هى سهد السهر !
تخلل نوما قديما ، وآخر طى الحفر !

ولا يستمرىء « شكرى » هذا اللون الكالح دائما ، فانه أحياناً يتحدث حديث الإنسان المغرور ، الذى لا يعرف حدود القدرة والعجز ، وحدود العلم والجهل ، فهو يستشعر عظمة مطلقة ، وأحلاما تكاد تكون من جنون الطموح ، بل هى منه . وينشر « شكرى » فى ذلك قصيدته (الأبد فى ساعة) ؛ فيتمنى أن تكون له ساعة واحدة ، يجمع فيها الخلود ، ويجتنى فيها الوجود من الأزل إلى الأبد ، ويفكر فيها كما يفكر الديان ، فيكون العيش والموت والدهر والقدر من جنده ، « قاضيا من صروفها كل شان » ، فهو لهذا يهمه أن يحمل نفسه فى يده ، « مثلما يدلف فى الحرب فارس بسنان » ، ويطلع على « ما مضى وما هو آت » ، ويرى « فوق ما ترى العينان » أى مما يدخل فى نطاق جبروته وعظمته .

هذه القصيدة قدم لها شكرى بمقدمة جاء فيها (١) :

(هذه القصيدة يراد منها وصف شعور الشباب ، ذلك الشعور الذى لا يعرف حدود القدرة والعجز تمام العرفان ، ولا حدود العلم والجهل ، ولكنه — على ما به من غرور — قوة فى الحياة من قوى الخير والشر ، ينبغى وصفها وتدبرها . ولعل القارىء لا يفهم كل مرامى القصيدة إلا إذا كان شابا ، أو لم ينس بعد أحلام الشباب ، وطموحه وقدرته ، وجنونه ، وسموه ، ونبله ، وجبروته ، فإذا كان لم ينس كل ذلك لم يستكثر على الشباب ما وصف به فى هذه القصيدة من شعور بالعظمة ، يكاد

(١) نشرت فى المقتطم : ١٩/١١/١٩٢٥ ولم يضمها الديوان الجامع .

يكون لاحد له ، ومن أحلام تكاد تكون من جنون الطموح ، أو هى منه أو من أحلام الصوفية . وقد يكون وصف هذه العظمة من تحسر المشيب على الشباب البائد) :

آه . من لى بساعة أتقصى	كل معنى فيها ، وكل بيان !
ساعة تجمع الخلود ، فلا آ	باد تقضى لغيرها بأمانى !
ساعة أجرع الحياة رحيقا ،	ثم أصدى لسؤر ما فى الدنان !
ساعة أجتنى الوجود ، وما كا	ن ، وما قد يكون فى الأكوان !
ساعة أنبذ القيود قيود ال	عيش والموت ، آبيا للعنان !
ساعة أفهم الوجود كما تحـ	دق بالكون فكرة الديان !
تحسب النفس تملأ الخلد فيها	ثم تجرى بالفيض بعد الزمان !
ساعة النفس لا المقادير تصمـ	مينى ، ولا الموت والفناء بدانى !
ليس للدهر سطوة أتقيها	ما لدهر علىّ من سلطان !
أنا فيها كالعيش والموت والدهـ	ـر ، وحكمى وحكمها سيان !
أنا فيها أقوى من العيش والمو	ت ، وأقوى من محكم الإيمان !
ساعة أحتسى الوجود عصيرا	ثم أبغى ما لم يكن فى مكان !
أحمل النفس فى يدى مثلما يد	لف فى الحرب فارس بسنان !
وأرى ما مضى ، وما هو آت	وأرى فوق ما ترى العينان !
ساعة ألمس النجوم ، وتعلو	حلبة الفكر فى ذرا الأكوان !
ساعة أحسب المقادير جندى	قاضيا من صروفها كل شان !
ساعة تخلط الفناء بخلد	فى اتصال لله والإنسان !

صدرت هذه القصيدة عن « شكرى » وهو فى سن الخمسين ، وساقها بصيغة المتكلم وملأها بغروره وطموحه وسموه إلى مقام الألوهية . ولم نشهد له فى شعر الشباب شيئا من هذا ولا قريبا منه ، مما يرجح أن هذه القصيدة صدرت عنه وهو واقع تحت الحسرة على شبابه المهدر المضيع .

وعندما يعود « شكرى » إلى يقظته الفكرية — أو تعود هى إليه — يجلى فى الإنسان عزماته التى يجدد بها عيشه ، وجهاد الشباب فى ميادين : العلم ، والسلم ، والحرب ، وهم « يحتسون العيش صابا ورضابا » من أجل أن يحلوا لغز العيش ناظرا إلى قول « هـ . ج . ولز » ، (إن عنصر الإنسان Home Sapien قد يزول كما زالت عناصر الحيوان ؛ بسبب اختلال عيشه ؛ إن لم يستطع أن ينظمه) .

وينظم « شكرى » فى ذلك قصيدته (نهضة الشباب) [1] ، التى ننشرها فى مصر لأول مرة ؛ ويهديها إلى الشباب المجاهدين فى سبيل الإنسانية المعذبة ، ويطرى كفاحهم وقدراتهم ومساعيهم وعزماتهم وانتصاراتهم :

ملئوا الدهر كفاحاً وطلابا	واستطابوا العيش سلما وغلابا
وقضوه فوق هامات الدنى	لم يُرِبْهم من حياة ما أرابا
بالشهى العذب من حلم الصبا	يحتسون العيش صابا ورضابا
كل دهر ممرع من سعيهم ،	قبله قد كان قفرا ويبابا
عزمات جدد العيش بها	كل دهر ردّها غُرّا صلابا
وإذا ما أرشدوا كانوا عمارا	وإذا ما ضللوا كانوا خرابا
ولقد يركب منهم غاشم	مركب النصر ، فيعلون الركابا
آية الآيات من عزمتهم	للصبا تسعى إذا ما الدهر شابا

ويشيد بالفدائيين من الشباب ، من أمثال نسور الطيران الذين لا يبالون مصارعهم . وعيون الجواسيس الذين يعملون فى خدمة الأمة ، وجنود الحرب الذين يدافعون عن الوطن بالنيران الحاصدة وهم فى أتونها ، وغيرهم من كل فدائى استرخص الموت فلم يحرص على متعة الحياة وحلو العيش ، حتى وحيد أمه التى ترجو عروسه عودته ودع آماله وانطلق إلى ميدان الجهاد ؛ يستعذب عذاب الردى ؛ ليذود عن وطنه

(١) بعث بها شكرى إلى فؤاد صروف ، فى رسالة مؤرخة : أول مارس ١٩٤٤ م ، ونشرها صروف فى مجلة (الأبحاث — البيروتية) : عدد حزيران (يونيه) ١٩٦٠ — ص ٢٣٨ .

وقومه ، فهو يقدم نفسه قربانا للحياة الشريفة ، ويترك العيش لشيخ فان لا يقدر قدرته على النضال :

كم نسور موشك مصرعها ماعدت أعمارها قابا وقابا
وعيون خدمت فى خفية ورأت فى الدم والموت الثوابا
ودليل فى حشا المقذوف ، لا يرتجى منه نجاة وإيابا
وقصير العمر حلو عيشه ، ورطيب العود جسما وإهابا
ما ارتوى من بهجة العيش، ولا قرأ الدهر سطورا وكتابا
ووحيد الأم ترجو عرسه عوده ، لو أن عرس الموت آبا
ما ازدهاه عبث العيش ، ولا قطع العمر سفالا وكذابا
ودع الآمال يحلو قطفها ، واحتسى ماء الردى مرا وصابا
ذائدا عن قومه فى غمرة ، يرتضى الموت ولو كان عذابا
ترك العيش لشيخ يفنى ، وحبا الحق حياة وشبابا

ثم يتجه الشاعر إلى ولاة الأمر — بزعم أنهم ولاة الحق وشيعته — مؤملا ألا تضيع على أيديهم مصارع هؤلاء الشبان المجاهدين سدى ، وراجيا أن يتخذوا منها منارة للخير وعتق الرقاب من الشر :

يا ولاة الحق ياشيعته ، نعم صحب الحق إن كنتم صحابا
لا يضع مصرع إخوان سدى، فيظل الشر فى العيش سرابا
الذى ترقب ما أعددتم ؛ علكم أن تعتقوا منها الرقابا

ثم يقول شكرى :

وتحلوا لغز عيش ، مورد من تغابى عن معانيه التبابا

ويفسر لنا شكرى نفسه ما أراده من بيته هذا ، فيذكر فى رسالة بعث بها إلى

فؤاد صروف » مؤرخة ١٩٤٤/٣/٢ — أنه أشار إلى قول « ولز » : إن الإنسان Home Sapien قد يزول كما زالت الحيوانات القديمة بسبب اختلال عيشه إذا لم يستطع أن ينظمه ، وهذا هو التباب أى الهلاك المقصود .

ويقول شكرى :

يسأل العابر أن يفصح عما يعمى . هل تحيرون خطابا

فيشبه هذا السائل بأبي الهول الذى يقال : إنه كان يسأل المارة عن ألغاز الحياة ، فإذا لم يجد لديه جوابا أهلكه — هكذا تقول الأسطورة . وبعد أن يستأنف الشاعر الإشادة بما يبنى الشباب من المجد وبما يهيئون للحق من سبل النجاح يختم قصيدته بالإشارة إلى أسطورة أخرى تحكى أن الحق يعيش فى قاع بئر ، والسعيد من شقها ، ووصل إلى قرارها . . قال :

وافطروا للحق بئراً ؛ عله يغمر العيش انهماراً وانسكابا

وشاعرنا « شكرى » يؤمن بالشباب ودوره فى النهضة ، وقد عن له أن يعقد بينه وبين المشيب مقابلة ، فأنشأ قصيدته (بين الثريا والثرى)[1] ، وأوحت استعارته هذين اللفظين بحركة المقابلة فى نفسه . فالشباب لهم الرفعة ، والعزم ، واليقظة ، وقوة الاحتمال ، وتحدى الصروف والخطوب ، وتأميل الخلود ، والسمو عن الخوض فى الخرافة والإيمان بالكهانة والاهتمام بما تخبىء الأقدار كما يهتم الراصد بالأفلاك والأبراج . يقول الشاعر عن الشباب :

تذكرنى الشبـاب وقـد علونا به فوق المجـرة والنجـوم
ونحن الخالدون . وكان حقـا خلو الخالدين من الهمـوم
وطئنا فوق أطـلال الدرارى وأشرفنا على بيـد السـديم
فلا « حمل » ولا « جدى » رقبنا ولا « السرطان » ذو البرج العظيم[2]

---

(١) عن مجلة الرسالة : ١٩٣٦/٢/١٧ — ص ٦٢٧ من الديوان الجامع

(٢) السديم فى الأصل الضباب الرقيق ، ويراد به أعلى السماء . والحمل والجدى والسرطان من أبراج المجموعة الشمسية .

وما من صولة الأقدار خفنا ... ولا لاحت لنا مثل الغيوم
ولم نعبأ بما تخفى الليالى ... ولم نخش المنية فى الهجوم

وفى الطرف المقابل نرى المشيب يرقبون الحياة حذرين ، باخلين ، أذلاء ، محرورين ، يطل الموت من كثب عليهم ، وتروعهم الصروف بكل خطب ، فتذهب جدة الدنيا ، وتصبح أطمارا ، وتمسى ذكرياتهم وأمانيهم مفضية لهمومهم . يقول الشاعر عنهم :

صحونا للحياة وما تراه ... من الخلق المقبح والذميم
فمن حذر إلى بخل وذل ... وسوء الظن بالخل الحميم
أطل الموت من كثب علينا ... وظل الموت أصبح كالنديم
تروعنا الصروف بكل خطب ... وخطب الموت أهون للفهيم
وضاعت جدة الدنيا وصارت ... كأطمار على جسم العديم
يحاربنا التذكر والتمنى ... كلا الأمرين يفضى للهموم

وفى هذه القصيدة والتى قبلها نلمس فكرتين ، أدارهما « شكرى » فى كثير من شعره ، وأولاهما تدور حول مبدأ القوة ، واعتباره أساساً للحياة الكريمة ، وأنه ينبغى أن نأخذ سبيل الطموح والعزم ، ونتحدى ما يعوق خطواتنا على درب المجد .

والفكرة الأخرى : أن عمل الانسان وما يبدو من عزمه ونشاطه ، أو ضعفه وفتوره ، مرده إلى داخل ذاته ، فهو يتحرك للعمل ، بمقدار ما تتحرك نوازعه ، وخواطره ، ودوافع نفسه .

ثالثا — النفس :

تناول « شكرى » النفس ، وهو لم يتناولها كتناول الباحث عن ماهيتها ، المفكر فى كنهها ؛ وإنما حديثه عنها هو حديث الشاعر بها ، وبما يلذها ، وبما يهتاجها ،

و « شكرى » يرفض أن تكون لذة النفس مستقلة عن لذة الجسم ، لأن كل لذة نفسية فيها لذة مادية ، وكل لذة مادية فيها لذة نفسية أو روحية ، فالحس باب النفس ، ومصدر غذائها . وفى هذا يقول فى قصيدة له عن (الحاجات الممتزجة)[1]،

كم من صلات بين نفس الفتى ... وبين موجودات هذا القضاء !
ورب لون هاج شجو الفتى ... وفتح الذهن بمرأى الضياء !
إن غذاء الذهن فيما احتوى ... من سمع أذن المرء ، أو رأى راء
والحسن باب النفس . كم والج ... منه إليها بالحجى ، والغباء !

ويصل « شكرى » هذه الخاطرة بخاطرة أخرى ، تعززها ، ونراها فى شعره دائما ، وفحواها : أن بين النفس والحياة الخارجية تجاوبا فى حالتى الإشراق والكدر ، ففى إشراق الحياة والطبيعة صفاء النفس ونقاؤها ، وفى كدر الحياة خمود الاحساس ، والعكس صحيح : يخلع « شكرى » من نفسه على الطبيعة وعلى الحياة ما قد تمتلىء به نفسه من مسرات وأحزان ، إلى حد الامتزاج والاندماج .

وعنده أن لذات الحياة تنال بالنفس قبل الحس ، فهو لهذا يخلد نوالها فى منطق حلولى ، ويطالعنا بهذا المنطق فى قصيدته (خلود التجارب[2]) ، فهو يحسو فى نفسه ما كان فرصة لحسه ، ويصعد فى حسه هذا إلى درجة اليقين به ، وينفى عنه التهويم وأحلام اليقظة والشعور ، من طول ما تمرست به نفسه ، فهذه النفس :

ترجى خلودا والخلود عناؤها ... وأى بقاء خالد غير مسئوم
وما الخلد إلا ساعة تقنع الحجى ... وتسعد نفساً لا تدين لتهويم
وكم نهزة بالحس لم أحس خمرها ... حسوت بنفس تستقاد بتكريم
هو الروح مثل الحس فى كل لذة ... وليس نعيم نال روح بمحلوم

---

(١) جـ ٢/١٣٩ من ديوان شكرى الجامع .
(٢) جـ ٦ ص ٤٥٨ من الديوان الجامع .

ويقربه هذا المنطق من (المثل الأعلى) (١) فينفى أن يكون فى الوجود حقيقة غير النهى وهو لهذا يعجب من أن « تنال أوهام الحقائق قانعاً » وتعاف خير حقائق الأوهام » ويدعو إلى انطلاق النفس ، وفرارها من قيود العيش ، إلى عالمها الفسيح عالم الفضائل والنهى ، الذى « يسع الدنى فى طوله المترامى » ، وإلا فانها العبودية للحياة والاستكانة للخمول ، والالتذاذ بالجمام والراحة :

ما فى الوجود حقيقة غير النهى	فاطمح بنفسك للذرا والهام
أتنال أوهام الحقائق قانعا	وتعاف خير حقائق الأوهام
والعيش إن لم تبغه لعظيمة	فالعيش حلم طوارق الأعوام
لفررت عن دار المذلة والأذى	لو فر بعض الناس فى الأحلام
وبدا له بين الحقيقة والكرى	باب لولاج العوالم سامى
فيفر منه إلى الفضائل والنهى	وينال ما يغلو على المستام
إن خلت أن الذام ضربة لازب	فى النفس — كيف تعاف ضر الذام
والنفس إما شئت كانت عالما	يسع الدنى فى طوله المترامى
بئست حياة قد رضيت براكد	من أمرها وقنعت بالإجمام

هذه العبودية للحياة ينكرها « شكرى » ولا يعترف بها ، وهذه الاستكانة للخمول يرفضها ولا يقرها ، وهذه اللذة بالراحة ينفيها ولا يقبلها . وفى أرجوزته (قوة الفكر) (٢) تزداد هذه القضية وضوحا إذ يريد أن يفرض على الحياة فكره ورأيه ، ويقول فى التقديم لهذه الأرجوزة (٣)

إنه استقى منطقه فيها من تعاليم السيد المسيح ، إذ ورد على لسانه فى انجيل متى « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ، ما جئت لألقى سلاما ، فانى جئت لأفرق الإنسان من أبيه وأمه ، والكنة من حماتها »

---

(١) جـ ٦ ص ٤٦٠ من الديوان الجامع .
(٢) جـ ٥ ص ٣٧٩ من الديوان الجامع
(٣) المقطم : ١٩٣٥/١٢/١٠

فى هذه الأرجوزة بدا فكر « شكرى » عملاقا يستحيل عملا مؤثرا فى الحياة يتباهى باخماد السلام ، وباشعال الفتنة ، وبأنه يفرق بين المرء وأخيه بالمذهب والرأى ، ويرخص العزيز والكبير ، ويسود الذليل والحقير ، ويطوى الأجيال ويقيم العلم ، ويصاول الجور ، ويقذف من آمنوا به فى المعاطب ، فاذا هلكوا فقبورهم منارات للأجيال ، تهديهم إلى قيمة الفكر وخطره ، وسيفنى الزمان ، ولن يفنى الفكر ، لأنه « نور الله فى الوجود ، فعمره كخلده المديد ، وهأنت ذا تستمع إلى صوت الفكر :

أسرى من العقل إلى القلوب	أكاد أن أعرف فى الوجيب
أبت فيها الهمم الصليبه	وأنزع العزيمة المغلوبه
وما أتيت كى أقيم سلما	لكن خلقت فتنة وعلما
ألوى برب الفكر عن ذويه	وأذهل العازم عن أخيه
وأرخص العزيز والكبيرا	حتى يصير هينا حقيرا
والناس قد غرهم خمودى	وهم على غرتهم وقودى
تهتم للحادث العظيم	كما تشب النار فى الهشيم
فأشعل النيران واللهيبا	وأشغل الأحمق واللبيبا
وكم رمانى الجور فى الأخدود	وقيدونى فوهت قيودى
واستبشروا بمقتلى وهلكى	وبينهم — لو يفطنون — ملكى
وأوسعوا من نالنى عذابا	وقطعوا من لحمه عقابا
فصار لى من دمه مداد	يخط فى الدهر به السداد
يا برما بالفكر يبغى خنقه	أأنت تدرى سره وخلقه
الفكر نور الله فى الوجود	فعمره كخلده المديد

ويصعد « شكرى » فى منطقه ، عندما حاول أن يكشف (لغز الحياة)[1] ،

---

(١) لغز الحياة : ج٦ ، ص ٤٩٣ من ديوان شكرى الجامع .

وما يتنازع النفوس من مد وجزر ، والوجود من حق وباطل ، فيضع العقل فى منزلة فوق الخلد :

والعقل فوق الخلد مد جناحه كالطير هابطة على الأوكان

ونحسبه يقصد (العقل الأول) الذى يسع الوجود العظيم ، أما عقول هذه الدنيا فهى عقول هزيلة ، تعشق الحياة الفاتنة ، وتتعامل بالشك فى طريقها للمعرفة ، وهى حبيسة أهواء أصحابها ورغباتهم ، فإذا ثارت على قيودها وقعت فى قيود أخر من الأهواء والرغبات كما يصورها الشاعر شبيهة باليتيم ثار على وصيه الظالم ، فاتهمه الوصى بالخبال ، وألزمه أسرا غير الأسر .. يقول « شكرى » :

روح الحياة على العقول مؤمر يعتز بالأضغان والأشجان
مثل الوصى على الوليد ، إذا نشا يلوى عليه جوامع السجان
كى يستبد بماله وعقاره ويليح زخرف خدعة المنان
ثار الحبيس على الوصى وظلمه فرماه بالعصيان والنكران
ورأى به لمماً وليس كما رأى لو كان يغنى العقل بالعصيان

رابعا — الزمن :

الزمن عند « شكرى » فكرة من أفكار الإنسان ، ومقياس من صنعه ، يقيسه الإنسان باحساسه بأمور نفسه ، وبالمرئيات ، والمحسوسات ، وما يعتريها من تحول . ومنطق هذه الفكرة أن الزمن أمر نسبى ، شأن الاحساس به كشأن الإحساس بالحرارة والبرودة والأبعاد والحجوم والألوان والأشكال ، فإذا استقام ذلك أمكن تصوير الدهر فى صورة البحر ، له خرير من تعاقب أجياله كما للبحر خرير من تعاقب أمواجه ، وتصويره ذا قلب نبضاته كدقات الآلة التى يقاس بها نبض الزمان ، أو كنبضات قلب الإنسان الذى يقاس الزمن باحساسه ، وتصوير دورة الأفلاك ترتيلا لألحان الدهر

التى يوقعها على الناس ، وتصوير ما فى وجوه الناس من تجاعيد وأخاديد أثراً لمشى الدهر عليها ، أو كما أنشد « شكرى » فى قصيدته (نحن والزمن)[1]

ينشد البحر خرير الحقب   أم خفوق القلب نبض الزمن
أم ترى الأفلاك فى دوراتها   رتلت منه خفى اللحن
فرش الناس له منهم وجوها   خدد الدهر بها ما خددا
أثر فى سيره من قدم   جعدت ما كان بضا أمردا

و « شكرى » يرى ممكنا أن يتصور العقل مخلوقا آخر غير الإنسان ، يختلف عنه فى حواسه فتختلف هذه الأمور فى نظره ـ أى فى نظر المخلوق الآخر ـ عنها فى نظر الانسان . وهى أيضاقد تختلف فى نظر الإنسان فى حالاته المتنوعة ، من شقاء أو سعادة أو مرض أو صحة ، وأنه كثيرا ما يمنى نفسه لو عاد اليه ماضى عمره ليفعلن كذا وكذا ، مما لم يتح له فعله ، وهذا وهم ، فإنه لا يغير فعاله إلا إذا تغيرت نفسه :

نحن نبغى من زمان فسحة   هل ربحنا من زمان قدقضى
لو يعود الدهر مردود الخطا   لفعلنا فعلنا فيما مضى

ويعجب « شكرى » للانسان ، ينسب إلى الدهر مثل هرمه لقدمه ، فلا يتصوره إلا شيخا فانيا ، مفنيا ، فى يده منجل يحصد به الخلق ، جيلا إثر جيل ، وإنه — أى الدهر — خليق أن يمثل بفتى فى ريعان الشباب ، يباشر وظيفته فى تقليب الحياة وتجميلها :

---

(١) جـ٨ ص ٦٤٠ من ديوان شكرى الجامع . ونشرت فى الرسالة ٤/٥/١٩٣٦ .(وليس ١٩٣٥ كما ورد بهامش الديوان) .

وهمـوا فى شيب دهـر يافع ذى فتـاء خالد لم ينصـل
يسرق الدهـرُ بهـاء رائعـا ويعـير الشـؤى حسنا أروعا
فهو كالرسام يمحـو صـورة ثم يستنبط رسمـا أبـدعا
وترى الدهـر مغـيراً آسيا يده تأسو وأخـرى تجـرح

والإنسان يهرم ، والدول تشيخ وتفنى، والأجيال تنقرض ، والدهر هو الدهر ، يمكن أن نتصوره مع بعض المفكرين — حاضراً لا ماضى فيه ولا مستقبل له ، فالماضى والمستقبل فى الناس ، ولهذا يكون عداء الناس للزمن عداء منهم لأنفسهم ، وتكون نسبتهم الظلم إليه هى نسبة الظلم إلى أنفسهم :

ولعـل المضمر المخبـوء من مصرع الدهر يرى بالأعين
مصرع الدهـر ممات للـدنى كيف يبغيه الورى بالإحن
موته مـوت لمن قـد قاسـه باتصال الفـكر أو خفق القلوب
عجبـا . نحـن خلقنـاه فما نسبة الظـلم إليـه والعيـوب

هذه الصورة الفكرية عن الدهر — تقابلها عنده صورة ساخرة ؛ الدهر فيها مسخ مشوه ، فهو أصلع ، أقرع ، يستحق أن يصفع ، وأن يطلى قفاه بمداد يخدع ، وأن تعالجه — إن كرهته — بالمبضع ، لأنك مكره على صحبته على الرغم من سوءه وبشاعة أمره .. والشاعر يدعوك أن تقبض على ناصية هذا المسخ لتجزها ، وترقع بالجزازة صلعته العارية الشوهاء ، حتى تستر عريه وشوهته ، ولا تحاول أن تؤدبه بالصفع لئلا يزداد صلعا ، وإنك لمكره على صحبته على الرغم منك وعلى الرغم مما ينفر منه ، فعليك إذن أن تعالجه كل علاج ، فإن شئت سترت لونه الكريه بلون يخدعك عن حقيقته ، وإن شئت غضضت الطرف عنه لكيلا تصيبك من رؤيته

الغثاثة ، فإن لم يجد هذا أو ذاك فعليك بمبضع الجراح تستأصل به أورامه وخبثه[1] :

ناص صروف الدهر مستقبلا	قـــذاله لو جزه أصلع
لجز من لمتـــه خصلة	لعلها من خلفه ترقع
فالدهر إن أقبلت ذو لمـــة	لكنها من خلفها أقرع
مطلعه مثل طلوع المنى	وحسرة ما خلف المطلع
ولا ترم بالذم صفعاً له	فإنما يصلع إذ يصفع
قراعه مثل قراع الظبا	وإنما يقرع إذ يقرع[2]
فاطل قفاه بمداد لعـــ	ـل اللون من روقته يخدع
وغض عنه نظراً واعياً	فإنما يعديك ما يطبع
وإن جرى فى الدم كره له	فخير ما يجدى لك المبضع
حجامة لا شك فى نفعها	وقد يضير المرء ما ينفع
ولا تعف صحبتـه ؛ إنه	بالرغم من صلعته أروع
واحن له الرأس لكيلا ترى	فانها من خلفـه تلمع

ولا شك فى أن هذه الصورة الساخرة أملتها حركة الأحداث فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، كما أملاها ولوع شكرى نفسه بالسخر ، مما نجده فى هذه القصيدة ، ونجد مثله فى قصائد أخر ، منها الأزاهير السود ، ومرآة الضمائر ، وحلم بالبعث ، وعبث الحياة — من قصائد الجزء الثالث المطبوع عام ١٩١٥ م ومنها : الحطاب والحشرة ، والروح السوداء — من قصائد الجزء الرابع المطبوع عام ١٩١٦ م —

(١) صلع الدهر — حـ٦ ص٤٨٣ من الديوان الجامع .

(٢) الظبا : جمع ظبة وهو حد السيف ونحوه . ويقرع الأولى بمعنى يصيبه القراع والثانية بمعنى يضرب .

ومنها قصيدة تمثال سوء — من قصائد الجزء الخامس المطبوع عام ١٩١٦م أيضا . وقد ألمح « شكرى » إلى طرف من ولوعه بمنطق السخرية حين كشف لنا عن مصادر ثقافته ، وعد منها دراسته لأدباء السخرية فى الغرب(١).

والأزاهير السود هى - باعتراف شكرى — لذات الحياة التى تعود بالألم ، وتكون عاقبتها الندم واليأس والشقاء . وفى رسالة تاريخها ١٩٥٨/٦/٧ بعث بها الشاعر إلى الزميل « محمد رجب البيومى » يقول : (أظن أن أحسن ماقلت فى التشاؤم هو هذه القصيدة وقصيدة صمت الشك) ، وفى الأزاهير السود يقول(٢):

قد جنينا من أزاهير الشقاء	زهرة سوداء من زهر القضاء
تبدل النفس سواداً من ضياء	ليس تنمو فى رجاء أو رخاء
تنفح السم أريجا والبلاء	وهى تغذى من زفير وبكاء
كم جنينا من أفانين الألم	زهرة سوداء من زهر الندم
لونها المأخوذ من لون الظلم	عابس فوق شفاه المبتسم
زهرة سوداء من زهر النقم	فهى طيف من ممات قد ألم

وعلى هذا النحو جعل الشاعر يجنى أزاهير شقائه وندمه ويأسه وهمومه وغمومه ولا يجد لها غذاء إلا من وجده ولوعته ودمه وشحوبه وجنونه .

ومرآة الضمائر إذا صدقتك كشفت لك ما بت تخفيه جاهدا مما لا تسرك رؤيته ولا معرفته ، وإذا صدقتك عن صحبك فجعتك فيهم وفى صداقتهم(٣) :

---

(١) انظر مقال (الشعر والثقافة) المقتطف — عدد يوليو ١٩٣٩ .

(٢) حـ٢ — ص٢٢٧ من الديوان الجامع . والرسالة مخطوطة لدى الزميل . وقصيدة صمت الشك تجدها فى الديوان الجامع ص٦١٩ وسيأتى ذكرها فى الفصل الثانى .

(٣) حـ٣ ص٢٣٦ من الديوان الجامع .

إذا لاح يوما شكل وجهك فوقها ... بكيت على ذعر وتصحو على ذعر
ترى فوقها ما بت تخفيه جاهدا ... من السوء والأحقاد واللؤم والشر
يرى الناس فيها أوجها كلها خنا ... يلوح كما تبدو الجماجم فى القبر
إذا ما بدا لى البشر فى وجه صاحبى ... أظل مروعاً خوف عاقبة البشر
يحييك من ألحاظه بطلاقة ... ويأكل عرضا منك بالناب والظفر

وعبث الحياة عنده هو حركة الأكوان إلى غايتها ، فلا اعتداد بها عنده ما دام الناس غارقين فى الشقاء والبلاء ، وقد أصابوا من التبلد والبلادة ما لذهم وأمتع حسهم .. قال شكرى(٤):

ماذا يفيد تصوبى وتصعدى ... فى مسلك للعيش غير ممهد
كالبحر فى أحواله متغيراً ... عبثا يضج بموجه المتجدد
عبثا تعيث الريح فى هباتها ... كالحادثات إذا تروح وتغتدى
عبثا يسير النجم فى أبراجه ... متنقلا فى سيره عن موعد
عبثا تضىء الشمس وجه مسالك ... للعيش تزخر بالشقاء المزبد
لو كان يدرى المرء قدر شقائه ... فى العيش ود لو انه لم يولد
والناس غرقى فى الشقاء ولؤمه ... من ناقم يشكو ومن متبلد
ومن البلية أننى بشقائهم ... وشقاوتى أمحو لذيذ تجلدى
إن التبلد والبلادة والغبا ... مثل الخمور - لذيذة - والمرقد

وعلى نحو من هذا يسيطر على الشاعر روح الهزيمة ، فيبغض الحياة والعيش ، ويقنط من روح الله ، ويشتعل قلبه بجحيم الغضب ، ويود لو باع دنياه بموت سرمدى :

ماذا على الإنسان لولا نسله ... إن باع دنياه بموت سرمد

(٤) ج٣ ص٢٠١ من الديوان الجامع .

خامساً : النشوء والارتقاء :

أعلن العالم الانجليزى « درون » سنة ١٨٥٩م عن نظرياته فى أصل الأنواع ، ونصيب الإنسان منها فى السلم الحيوانى . ويجمل نظريته فى النشوء : أن الحيوان والنبات نشآ من أصل واحد ، وأن الإنسان لم يكن إنساناً منذ الأزل ، وإنما كان حيواناً يشبه القرد ، ومن قبل هذا كان يشبه الليمور ، وهلم جرا ... حتى يصل بالإنسان إلى الخلية الفطرية للحياة على الأرض . ويجمل نظريته فى الارتقاء : أن تنازع البقاء بين الأفراد هو أكبر عامل يؤدى إلى انقراض بعض الأنواع وبقاء بعضها الآخر . ولما نقلت النظريات إلى البلاد العربية أثارت الباحثين إلى خطرها ، مابين مطمئن إليها ومرتاب فيها ورافض إياها (١) وهذا هو « شكرى » يسلط عليها أسلوبه الساخر ، فينكر على القرد فى شخص الإنسان — مادام خلق القرد والانسان واحداً — أن يكون له عقل ، وأن يسمو بعقله إلى خير ماجاءت به الرسل ، ولو كان ذلك العقل « نقلا » لجمده ولكنه سراب خادع (٢) :

لئن كان خلق القرد والناس واحداً ... وصدق ماخالوه من ذلك القول
فسائل بهذا الدهر إن جد جده ... أيا دهر ماللقرد — ويبك — والعقل
مقيم على الدقعاء يسمو برأيه ... إلى خير ماجاءت به حكمة الرسل
وقل لبغيض يحسب الحق جرعة ... مقال رشيد القول والخلق والفعل (٣)
جهلت ولكنى بجهلى عالم ... وإنك لاتدرى بمافيك من جهل
ودعهم ، ولج بالرأى فى كل مغلق ... فإنك — ياقرد النهى — معوز المثل

---

(١) انظر : نظرية التطور وأصل الإنسان لسلامة موسى ، وحق اليقين فى الرد على بطل دروين لابراهيم الحورانى ، وعلى أطلال المذهب المادى لمحمد فريد وجدى ، والاتجاهات الأدبية فى العلم العربى الحديث جـ٢ لأنيس الخورى المقدسى ، وزعماء الاصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين .

(٢) قرد النهى : جـ٦ . ص٤٨٤ من ديوان شكرى الجامع .

(٣) يقصد بهذا الرشيد : سقراط

ولو كان ذاك العقل، نقلا ، حمدته ... ليهنك - ياقرد النهى - مطعم النقل
ولـــكنه كالآل يظمى غديره ... وإن نلت من جدواه نيلا على نيـل

فهذه النظريات لا تستطيع أن تجد — عنده تفسيرا للوجود ، لأن فيها مسخا للحقيقة . وفى فصل ساخر يعقده « شكرى » فى كتابه (حديث إبليس) لبيان هذا المسخ(١) يشكو قرود القرود إلى كاهنهم مايلقونه من قرود الناس من التعالى ، فيطمئنهم على أنهم — أى قرود القرود — هم أهل الرأى وإحسان العمل ، أما قرود الناس فليسوا على شيء من الامتياز لينتسبوا به إلى قرود القرود ، وأن الله قد عاقب قرود الناس ، لفسادهم ، وسفـــالة نفوسهم ، بأن نقلهم من المنزلة القردية إلى المنزلة البشرية .

وفى قصيدة عنوانها (النشوء والارتقاء) نشرها فى « المقتطف »(٢) — وأصحابها ممن اتخذوا صحافتهم مجالا لنشر المبادىء الوافدة - حاول «شكرى » فيها أن يتعرف سر إنسانية الإنسان الواقع فريسة السغب والشهوة ويعنف به إذ لم يحقق هذه الإنسانية ، بما ارتقى فيه من مدارج العرفان ، ولم يمنه تسخير الطبيعة وإعلاء العمران ،وتقديس الأديان ، وسن القوانين ، ويشمت فيه ، ويراه سيصدر عن الحياة — كما وردها — عريان ، صفرا ، تحطمه الأحزان والآلام ، وتبليه الحياة ، كما تفعل عوامل التحات والتعرية الجوية بالصوان ، وتصرعه الجراثيم ، ويهلكه الجوع أو يهلكه الشبع — سيان — فهو مخلوق تافه ، غارق فى أدرانه فلا يجديه الارتقاء شيئا :

أراك فريسة الجـــو ... عين سغبانا وشـــهوانا
بربك أيهــــا الإنسا ... ن لم أصبحت إنسانا
وردت الـــعيش عريانا ... وترجع عنـــه عريانا

---

(١) حديث إبليس : ص ٤٧ .
(٢) المقتطف : أول نوفمبر ١٩٣٥ وهى بالجزء الثامن • ص٦٠١ من ديوان شكرى الجامع .

ومِلء حياتك الأحزا ن والآلام ألوانا
وتبليك الحياة ، كما يفت الجو صوانا
وتصرعك الجراثيم كما لو كنت ديدانا
وقد تهلك غرثانا وقد تهلك مبطانا
وقد تغدو إلى اللذا ت فتاكا وخزيانا
فبين الجوع والشهوة قد أجريت ميدانا
وللتحليل والتحريم قد أعددت تبيانا
فما أصلحت حاليك ولا طهرت أدرانا
وفقت الطير والحيوا ن آثاما وأشجانا

الفصل الثانى

الحياة والموت

فن الحياة – على أعراف الحياة ومشارف الموت

أولا – فن الحياة :

ينتشى المفتن عند صناعة فنه ، وينتشى المتذوق لهذا الفن عند تذوقه ، وهذه النشوة فن ، وتلك النشوة فن ، مثلهما (فن الحياة) فى رأى « شكرى » فإن الانسان فى الحياة نشوة كهذه أو تلك . ويقول فى ذلك (١) :

أيا حسن هذا العيش لو كان قصة يسرّ بها سارى الورى وهو يسمر
على ما بها من ضجة بين شقوة وكم عاشق للنقص يهوى وينكر

فاذا عدم الإنسان فن الحياة صعب عليه أن يسيغها ويلتذها :

فليت الفتى يبدو له صرف عيشه كعيش غريب قصة تتدبر .
ويارب مأساة إذا ما بدت له تمثل إن يحزن لها فهو يصبر
وفى فنها ملهى وحسن وسلوة ولولا فنون العيش ماكان يعذر

ولا يمنع « شكرى » الانسان أن ينقد الحياة ويتحرك لإصلاحها ، كما ينقد متذوق الفن ما يتذوقه منه ويوجهه . كذلك لا تمنع الرغبة فى إصلاح الحياة من الاستمتاع بها وتصورها ممثلة حسناء تمثل الخير وتمثل الشر ، فلا يكرهها مشاهدوها بسبب تمثيلها الشر ، لأن تمثيلها لا يكشف حقيقة نفسها ، وإن كشف حقيقة فيها :

حياة كحسناء المسارح ، شرها إذا ما حكته عاد بالفن يبهر

---

(١) قصيدة فن الحياة : جـ ٨ ص ٥٨٦ من ديوان شكرى الجامع .

ممثلة حسناء كم مثلت أذى   وغدراً، أجادت فنها وهى تغدر
فما زادها إلا بهاء وحظوة   لدى عاشقيها، وهى بالفن تأسر

ولا ينبغى أن ترفض الحياة لشرها ، فهى إنما تعرض ما فى نفوسنا على مسرح العيش فنحن الذين نحركها لتمثيل الأدوار اللاتى فى دواخلنا :

يمثل كل دوره فى حياته   فإن راق فن فهو شأو ومظهر

ولا ينبغى أن نبكى حظوظنا ، أو تروعنا الخطوب ، ونقصد للمفاضلة ، فنأسى للشر ونتمناه خيراً ، مع أن الشر من نفوسنا والخير من قلوبنا ، فاذا راعنا هذا روعنا ذاك فما أحدهما من الآخر ببعيد ، وإنما يرجعان معا إلى أصل واحد ، ويصور « شكرى » ذلك بأن نمر الشر الذى فى كل نفس لم يتحول هرة وديعة ، وهو لو تحول ما جاوز أصله ولا فصيلته ، لأن النمر والهرة من أصل واحد وفصيلة واحدة :

أئن نمر فى النفس لم يمس هرة   تظل على الأسقام تبلى وتسخر
وما نمر عن هرة بمباعد   ويطغى وديع حين يبغى ويقدر

ومن فن الحياه عند شاعرنا أن نتلذذ بحسوها كما يتلذذ بالخمر شاربها، ونغالب أخطارها ونستمرىء همومها ، ونعتاد خطوبها ، فان من سكر من خمر الحياة لا يخشاها مثلما لا يخشى السكران مما يقع له ، وإن من عرف الحياة تأسوما تجرح لم يبال جراحها مثلما يصبر الظمآن على الظمأ فيعتاد تحمله ، ويكون له من اعتياده هذا رى ، وإن الضيم الذى يلحق الإنسان انما هو فى الإحساس به ، ولكن ذلك الاحساس يزيله توالى ضيم الأحداث ... أشار الى هذا « شكرى » فى قصيدته (علالة العيش) (١) :

وما العيش الا خمرة أنا شارب   فهل رائعى أن الخطوب أمام
وهل يفرق النشوان من صرف دهره   ويشقيه من وقع الخطوب لمام

---

(١) جـ ٥ ص ٣٩٠ من ديوان شكرى الجامع

ومالى لا أرضى وفى الخوف لذة　　وليس لأدواء الكلوم دوام
مغالبـــة الأخطار سكر ولذة　　وإن شب منها فى الضلوع ضرام
وإن صروف الدهر تأسو جراحها　　وتظمى فيروى بالأوام أوام
ومن رحمة الأقدار كر خطوبها　　ومن عاده ضيم فليس يضـــام

ومن فن الحياة عنده أن ننتهزها ونتجلد لها ، ونحسو كأسها فى دعة ، ولا نفكر فى مصادرها أو مصايبها ، ولا نبالى عزها ، أو هونها ، فإن جاءك الهم منها فدار الناس كلهم عنه ، ولا تكشف لهم عن آلامك ؛ لأن برهم مظنون ، وتضاحك فى وجوههم ؛ لكيلا تظهر لهم المبالاة . وقل لهم دائماً « إن هذا الدهر مجنون »(١)

إنما الدنيا لذى جلد　　رأيه بالعزم مقرون
هـذه الأقدار محدقة　　غر منها الضيق واللين
نحن فى أقدامها كرة　　مالنا فى العيش تأمين
لا تفكر فى مصادرها　　كل هذا الفكر مظنون
لا تفكر فى مصائبها　　أى ما أملت ميقون
فعلام الخوف من غير　　للعوادى شرها الحين
احس كأس العيش فى دعة　　لا يرعك العز والهون
كسراب البيد عيشتنا　　مالنا فى الدهر تمكين
إن أتاك الهم مشتملا　　سيفه والسيف مسنون
ورأيت القلب منه جرى　　دمه والقلب مطعون
دار عنه الناس كلهم　　إن بر الناس مظنون
ثم قهقه فى وجوههم　　وإذا مالام محـــزون
فتضاحك ، ثم قل أبدا　　إن هـــذا الدهر مجنون

هذا المنطق - القريب من منطق « الخيام » - باعثه اليأس من الأقدار التى أحدقت

(١) جنون الحياة : ج٣ ص ٢٦٤ من ديوان شكرى الجامع

بنا وأحاطت بنا وروعتنا ، وقيدت حريتنا ، ولعبت بنا كما تلعب الكرة ، وكما قال :

نحن فى أقدامها كرة ما لنا فى العيش تأمين

أى أنها سلبت أمننا ، أو لم تهيىء لنا (تأمين) العيش ، وهذه صورة من صور الحياة الحضارية الحديثة .

ولا فائدة يجدها « شكرى » فى مغالبة الأقدار ، للإفلات من قبضتها ، فهو يوئس الهارب من قدره ويدعوه أن يقرأ التاريخ ، ويطلع عليه ، ليعتبر به وبأقداره . ويلفته عن ذلك إلى تطلب الفن أو العلم ، أو المتعة ، أو القوة ، فرارا من جو القدرية القاتم[1] .

يا هارباً من صولة المقدار أتراك تفلت من يد الأقدار
اهرب إذا ما اسطعت فى أزل الدنى أو فى مدى الآباد والأدهار
أو فى الممات وما تلاقى خلفه بين الفناء ومعقل الأسرار
تعدو ويدركك الذى خلفته كالليل ليس يفر منه السارى
كل من العيش المروع هارب لو فاز خلق فى الدنى بفرار
بالفن ، أو بالعلم ، أو بمجانة أو بالسطا والجند والأنصار
فإذا القضاء مآلهم ، ونفاذه كحصاد كل وسائل المختار
سل صفحة التاريخ كم قوم به أجراه مجرى الدهر فى مضمار
أقوام أدهار مضت بعض لها ذكرى ، وبعض ما لها من دارى

ويطلع « شكرى » نفسه على التاريخ[2] فلا يجد غير شقاء الناس من عهد آدم ، و « عيش المناكيد بالأسقام والألم » ، وأنهم أغروا بالحروب ، فسفكوا الدماء ، واستوحشت نفوسهم . .

---

(١) الهاربون من القضاء جـ٨ ص٦٣٣ من ديوان شكرى الجامع .
(٢) فى قصيدة (سنة العيش) حـ٤ ـ ص ٣٥٣ من الديوان الجامع .

ظنوا الحياة محالا أمرها أبداً إلا على الحقد والبغضاء والنقم

فناصبوا العداء من يدعو للإصلاح ، ورموه بالتعلق بالأوهام ، وما كان أجدرهم أن يعودوا إلى إنسانيتهم ، فإن كان لابد لهم من أن يحاربوا فليحاربوا الطبيعة ، وليحاولوا أن يتغلبوا عليها ، وهذه حرب مشروعة ، فإذا كانت البشرية مسوقة إلى الحروب بداعى كثرة النسل فالحل السعيد عند « شكرى » هو الإعقام .

العيش حرب ولكن فى عدوهم حرب الطبيعة خير الحرب والحكم
حرب الطبيعة حرب لا انتهاء لها حسب العقول وحسب العزم والهمم
إن كان يخشى على الأرزاق إن كثروا فأحسن الداء داء العقم فى الرحم

ومن العجيب أن ينهى « شكرى » هنا عما حث عليه من قبل من انتهاب العيش وانتهاز الفرصة لذلك ، وينفى أن يكون ذلك صواب الرأى ، ويعلل له بأنه يجعل الناس عبيداً للذاتهم وهو أمر غير مقبول فى العقل :

لا تسمعن مقالا قال قائله وما أصاب صواب الرأى فى الكلم
(إضحك ولذ ، فإن العيش منتهب وأضيع الأمر عيش حيط بالعدم)
فذلك القول حرب للنهى أبدا قد صير الناس للذات كالخدم

وواضح أن « شكرى » قد تأثر بما ساقه فى قصيدته ؛ من غفلة الناس عن الحق وصراعهم الدموى فى سبيل الباطل . ومقالته تلك لا ترد على دعوته لانتهاب العيش ، لأنها المقالة الفريدة بينما دعوته لانتهاب العيش قد برزت فى أكثر من قصيدة[١] ولأنه تحدث عن الحروب البشرية أكثر من مرة فلم يكرر تلك المقالة .

ونسارع إلى القول بأن دعوة « شكرى » لانتهاب العيش ليست ناشئة عن فلسفة عملية ، أو رأى فى خطر وقيمة الملذات والشهوات ، وإنما هى دعوة ناشئة عن تصور

---

(١) انظر : جنون الحياة (بالجزء الثالث) وعلالة العيش (بالجزء الخامس) والحياة والحق (بالجزء السادس) ، وفن الحياة (بالجزء الثامن)

قاتم لملذات الحياة فى عالم المدنية ، يميت الأمل فى النفس فيغرقها فى اليأس ويرحل بها إلى مجاهل الألم (١) فإذا استسلمت للوحدة والعزلة والانفراد كانت الفرصة مهيأة لاقتناص العيش الغارق فى هذا المحيط الكالح .

إن ملذات الحياة فى تصوره — كما ذكرنا فى الفصل السابق (٢) — أزاهير سود ، تعود بالألم ، وتكون عاقبتها الشقاء والندم ، وهى صنوف وألوان ، منها زهرة اليأس ، وزهرة الأسى ، وزهرة :

تشعل الوجد ولوعات الغليل
وهى مثل الجرح فى صدر القتيل

ومنها زهرة الشقاء أو زهرة القضاء :

ليس تنمو فى رجاء أو رخاء
تنفح السم أريجا ، والبلاء
وهى تغذى من زفير وبكاء

ومنها زهرة الندم المأخوذ لونها من لون الظلم ، ومنها زهرة النقمة ، وزهرة الضجر :

وهى من نبت هموم وكدر
فهى بالليل سهاد وسهر
وهى فى الصبح الشقاء المنتظر

هذا هو الأريج الطافح « فى رياض من شقاء وعناء » ، ولا مفر له — كما يذكر هو — من الرياضة فيها صبحا ومساء ، فـ « ليس يمحى بشكاة أو بكاء » وإنما يمحى — إذا أمكن المحو — بانتهاب العيش وإرخاصه .

---

(١) انظر كتاب الاعتراف لشكرى : المقدمة ، وفصل (الحياة والوحشة) ص ٤٥
(٢) ص ٣٠

وهذه الألوان التى لون « شكرى » بها الحياة إنما هى ألوان نفسه ، لأن لذة الحياة حقيقة فى نفسها كائنة بنفسها ، وتأخذ ألوانها من الإحساس الذى تقاس به الأشياء ، ويحكم عليها بحكمه(١) وقد سبقت الإشارة إلى نحو من هذا ، فالعيش يتلون بلون حواسنا ونفوسنا :

والعيش كالحرباء يخدع لونه ... والحس بعض حبائل الخدعات(٢)

وشاعرنا ذو حس دقيق لأمور الحياة ، ومواقع هذه الأمور من عاطفته ، وإنه ليسره أن تكون الحياة أسعد حالا وأكثر إنصافا(٣) ، فلا نستكثر عليه أساه مما تمتلىء به الحياة من نفاق وظلم وشقاء . على أن له (رغبة فى العيش)(٤) ، يمليها أمله فى أن يصنع للأيام محمدة ، تعود بالخير أو تعين على الشر .

ولولا رجائى أن أقول مقالة ... تعود بخير أو تعين على شر ؛
لما كان لى فى بسطة العمر رغبة ... ولم أحمد الأيام أن زيد فى عمرى

وهو يعتقد فى الحياة ، وتظمأ عينه ونفسه إلى محاسن الأقوال والفعال ويكره تثبيطه عن ذلك(٥) :

لى فى الحياة اعتقاد لا فناء له ... الكون يعلنه والفكر يوضح لى
وإنما الكون قلب لا سكون له ... حياته نبضات الحادث الجلل
فالعين ظامئة والنفس ظامئة ... إلى محاسن من قول ومن عمل
لا ترجمونا بيأس فى مقالكم ... فاليأس أقبح ما ينعى على الرجل

وهو يدعو الأمم إلى (التجدد والتغير) ، ويضرب لها المثل بماء النهر ، يصلحه

---

(١) شكرى : الثمرات ص ٢٧ وما بعدها
(٢) الحياة والحق : جـ٦ ص٤٣٨ من ديوان شكرى الجامع
(٣) انظر قصيدته المرسلة (كلمات العواطف) ، ج ١ ص ٨٥ من ديوان شكرى الجامع
(٤) رغبة فى العيش : جـ٢ ص١٩٠ من ديوان شكرى الجامع .
(٥) الإيمان بالحياة : جـ٢ ص ٧١ص من ديوان شكرى الجامع .

التدفق والمسير ، ويأجن فيكثر قذاه ، فعلى الأمم التى تريد اللحاق بركب الحياة أن تترك مابلى من عاداتها ونظمها وتأخذ بأسباب الحضارة [١] :

حياة الناس إما ماء نهر ... فيصلحه التدفق والمسير
وإما ماء آجنة كثير ... قذاه ، ويأجن الماء الطهور
وليست هذه العادات إلا ... رداء العيش تبليه الدهور
رداء العيش تبليه الليالى ... ويبكى عهد جدته الغرور

ظلامات وعادات تقضى ... وبعض الأمر يصلح إذ يحول
وأسباب البقاء لها صيال ... صيال السيل يهلك إذ يصول
فإن تسدد طريق السيل تهلك ... ولا يغنى البكاء ولا العويل
ويحيا بالتغير كل حى ... ويردى الفاسد القدر العجول

وبين الدهر والدول استباق ... وبعض الناس يعوزه المجال
فقل للغافلين إذا أصاخوا : ... حياتكم هى الداء العضال
ستنفذ فيكم الأقدار حكما ... ويرجمكم بأنكده المآل
وهل يخشى الجديد سوى جبان ... له من حب أقدمه عقال

وهو يرى الحروب عبثا ، ويسخر من الأمم التى تتحارب ، ثم تتصالح فتنسى قتلاها وأنات جرحاها ، وكأنما ضاع شقاؤهم وجلادهم سدى ، ثم ما يلبث خصوم الأمس أن يتحالفوا وحلفاء الأمس أن يتعادوا ؛ قال شكرى [٢] :

كم احتربت أمم ثم عادت ؛ ... كأن لم تذق فى الحروب الشقاء
ألم تسمع الأرض نوح الجريح ... يودع حتى جنون الرجاء
أما اختلطت بالصديد الدماء ... أما أفعم الموت نتن الهواء

---

(١) التجديد والتغير : جـ٢ ص ١٠٧ من ديوان شكرى الجامع
(٢) العداء والفناء : جـ٨ ص ٦٤٧ من ديوان شكرى الجامع

فيا عبثا لجهود الأنام سيمضى الرخاء ويمضى العناء
ويصبح من كان خصما لدودا عزيزا ، ويمضى إلى المساء

ثانيا — على أعراف الحياة ومشارف الموت :

وفى جعبة « شكرى » من أعاجيب الحياة كثير ، ولديه بضاعة من أحلام الحياة فهو يعرضها لمن يرغب فيها ، ويزينها للشارين[1] :

عندى من الأحلام كل بضاعة ومتاجر غبانة لا تكسب
حلم يروع ولا يسر ، وغيره حلم يسر إذا يجىء ويعجب
حلم يزيل عن الفقير خصاصة حتى يبيت على الدسوت يعصب
حلم ترى فيه العزيز مرجما مستجديا خلقا يذل ويضرب

وأحلام أخر ، وكل شار يشرى ما يصلح له وما فيه نفعه وفائدته ، ولكن تاجر الأحلام — ككل تاجر شريف — يصدق الشارين ، يعلن إليهم أن بضاعته « غبانة لا تكسب » وإلا فإن العقل يدعوه أن يحتجنها لنفسه ، ويزهى بها ؛ جنونا بالقدرة التى أوتيها :

لو يستحيل المستحيل على الورى وأنال من أحلامه ما أطلب ؛؛
لجننت جنة قادر متحكم يرضى على هذا الأنام ويغضب .

أما وقد عرف أن بضاعته غبانة لا تكسب فليست إذن هذه الحياة هى التى خلقها الله ، لأن الله لا ينظر غير الذى « يرضيه من خلق الوجود ويعجب » فلو قد راقه هذا الوجود لخلقه على مثاله ، فمجىء الكون هكذا أوهاماً معناه أنه ليس من صنع الله :

فالكون لم يخلق . ونحن نظنه خلقا يجىء به الزمان ويذهب

---

(١) مشترى الأحلام . ج٣ ص ٢٧٥ من ديوان شكرى الجامع

هذه الخاطرة الفكرية مردها - كما سبق الايضاح — حس الشاعر الدقيق لأمور الحياة وقد كان يأمل ألا تميت الأمل فى نفسه .

ومن هنا يصبح « شكرى » عديم الثقة بالحياة ، وإن تكن مفروضة عليه ، يلعقها على رغم منه[1]

كما يلعق الآسى العليل دواءه   وإن مج منه علقما قد نبا طعما

وهو فيها (كأرجوحة بين الشقاوة والنعمى) ، لا يمدحها ، ولا يذمها ، لأنها لم تستقم له ، فلا يستقيم إذن فيها مقاله :

ولا يستقيم القول إلا لمنتش   من العيش والآمال لا من صحا غما

وما يفتأ الشاعر مشدودا إلى السلبية لا ينسل منها ، فهو لا يبالى مقالا ولا صمتا ولا يبالى نضال المناضلين لأنه نضال فى غير طائل ، ولا يرى الفهم إلا قد أشوى الصواب فأصابه فى غير مقتل وأظمأ أصحابه فما أرواهم ، وإنه لخير من الواقع صورته الفنية ، فإن حقيقة الواقع مؤسية مؤلمة مفجعة ، ولقد تجسمه الصورة وتكشف أبعاده ، ولكنها تبقى صدى للواقع فيكون فيها سلوة :

وقد حل بى دهر إذا ما مدحته   أظل كحاسى المر يفتعل البسما
وإن لم ينلك القول إلا مذمة   فمن بر نفسى أن ترى تركه حزما
فمن شاء فلينطق ومن شاء فليكن   صموتا ، فحسبى أن أرى الحمق والحلما
مللت نضال الناس فى غير طائل   وإن كان شرا يصقل الذهن والفهما
وكم شبهوا فهما بسهم ومورد   ويا طالما أشوى الصواب وكم أظما
فيا ليت هذا العيش يبدو كصورة   لعينى ، أو خطا على الطرس ، أو رسما

---

(١) صمت الشك : حـ٨ ص٦١٩ من ديوان شكرى الجامع

كما تهدأ الهيجاء فى رسم راسم   تراها فلا قتلا تراها ولا كلما
ترى حسن إحسان وتجويد صانع   وقدرة فنان وجهداً له تما

والشاعر يدرك أن الحياة تتراءى له — ولغيره من النشء والكهول — لتعجب ، ولولا ترائيها ما أعجبت ، ومع ذلك يحاول أن يفك رموزها ، ويفقه أسرار ترائيها ، لأنها :(١)

لو بدت عاطلا لما خلبت لها   ولا استعبدت عشيقا وخلا

ثم يكشف أن جمالها بجمال نفس الانسان ، وهو يلهو بها ، ولا ينكر فى شأنها مقالا ، ولا ينقض فعلا ، ويحبوها بالنسل ، ويعشقها فى الحب :

فاذا شاكه من العيش هم   قال قولا ورام للغز حـلا

وهكذا يقف « شكرى » على أعراف الحياة ، تارة يود أن يغمر فيها نفسه ، ثم تصده عنها قيودها الثقيلة التى يضيق بها ، ويرى نفسه على مشارف الموت عاجزا أشل (مدفونا بالحياة) كما يقول العامة فى مصر . ويصور لنا ، « شكرى » صورة مريعة لشخصه (الدفين الحى) رأى أهله منه غفوة ، فظنوه ميتاً فكفنوه ، وأدرجوا القبر ، فلما أفاق حاول أن يتخلص من كفنه فلم يستطع فهاج كما يهيج النسر شد إساره طلباً للخلاص ، ولكن هياجه ذهب بددا ، وأدركه الجنون حتى مات(٢) :

دفين طواه الأقربون بلحده   وظنوه ميتا . إنها لظنون
رأوا غفوة منه تغر كأنما   دهته من الدهر الخئون منون
فدلوه فى قبر سحيق وأطبقوا   عليه رجام القبر وهو ركين

---

(١) سر الحياة : حـ٨ ص٥٨٨ من ديوان شكرى الجامع
(٢) الدفين الحى : حـ٣ ص ٢١٥ من ديوان شكرى الجامع

أفاق وما يدرى أفى الحلم مايرى وهيهات منـــه إنه لدفين
فهاج هياج النسر فى الأسر طرفة وأدركه — حتى الممات — جنون

ووقف شكرى على مشارف الموت ، يتطلع إليه ، وقد تمثله بحراً ، ليريحه من عنت الحياة وأعاجيبها ، ويستصرخه شاكيا(١) :

أجرنى من ظلم الحياة ولؤمها فإن شقائى مثل لجك زاخر
أرى كفنا من نسج موجك أبيضا تمزقه الأرواح وهى ثوائر
وأنت مهاد لين الطىء(٢) ناعم ونعش لمن يرجو الردى ومقابر

ولكن الموت يسخر من شكواه ، ولا يستجيب له ، فيرجعه كسيفا حزينا ، يعالج صرف الدهر فى غير مطمع ، ويفعل ما تملى عليه المقادير ، ويقف حيران بين العيش والموت ، لايدرى متى يسير ولا أين يسير ولا كيف يسير ، وأخيرا يرضى عن هذا العيش على علاته :

أعالج صرف الدهر فى غير مطمع وأفعل ما تملى علىّ المقادر
ولكننى أرجو من الموت راحة ويفزعنى وقع له وخواطر
وما العيش إلا الذئب تدمى نيوبه وللعيش ناب قاتـــل وأظافر
ولكنه كالخمر تحلو لشارب وإن سلبت منه النهى والسرائر
فها أنا بين العيش والموت واقف فهل مخبر يدرى متى أنا سائر
لعل الذى أرجو من الدهر واقع فقد كان ماقد كنت دهراً أحاذر
عسى أن يعود العيش جماً جماله فنى الروض فينان وفى الأفق زاهر
ويكشف صرف الدهر عنى غشاوة من اليأس لاتجدى لديها البصائر
فلا تعذلانى . بارك الله فيكما فإنى بهذا العيش راض وصابر .

ولكنه — كما ترى — رضا اليائس وصبر العاجز .

(١) بين الحياة والموت : ج ٣ ص ٢١٣ من ديوان شكرى الجامع
(٢) يقصد (الموطىء) ولم أجدها

ويسير شاعرنا خطوة عن مشارف الموت ، فى محاولة لمعرفة الجواب عن حيرته فيشتاق مثلما اشتاق من قبله « أبو العلاء »[1] — أن ينشر ميت : ليسأله سر ما بعد الموت ، فيجيبه ، وإنه لفى شوقه إلى جواب سؤاله، يسلقه الميت بألسنة حداد تكشف تفاهة الحياة وغثاثتها حين يسأله الميت[2] .

... عن الحجى أين يمضى ؟ ، أين تمضى عرامة وقنوت ؟
أين يمضى الذكاء والأمل الحلو ؟ وأين المعشوق والمنعوت ؟
أين نار الحياة كالنار فى رهط مجوس ما خيف فيها الخبوت ؟

* * *

أم ترى هذه المشاعر أوهام ؟ فلسنا نحيا ولسنا نموت

فهل أجاب هذا الحى تلك الأسئلة ؟ وهل اطمأن « شكرى » إلى أوهام مشاعره وأننا (لسنا نحيا ولسنا نموت) ؟ كلا . فهو مرة يرى أننا نحيا حياة تؤهل للموت ، وأن الموت فى خدمة الحياة ، وأن الحياة تتفضل على الموت بما تلفظه وتنبذه من الأحياء ، مثلما يتفضل السادة بما خلق من ثيابهم على غلمانهم ، وأن الحياة لا يعجبها إلا زى الحياة ، فإذا دب فيه البلى خلعته كما تخلع الحية جلدها مستبدلة به[3] :

ياحية الخلد كم لبست وكم نضوت جلداً يشق الأنام به
كأن هذى الحياة غانية تعاف برداً من بعد مطلبه
كأنما الناس بردها أبداً تعاف ملبوسه لمعجبه
ثوباً فثوباً تظل تخلعه إذا خصى الحمام آب به

ومرة ثانية يرى الموت ظل الله فى الأرض ، وأن فيه البشرى ، وفيه الأمن من الحسرات ، وأن المقدور مقدور لا يقوى الإنسان على تبديله وتغييره وتوجيهه لما قد

---

(١) طه حسين : مع أبى العلاء فى سجنه ص ٣٠٤ وما بعدها
(٢) من الحى إلى الميت : ج٦ ص ٤٩٠ من ديوان شكرى الجامع
(٣) جد أم لعب ؟ ج٦ ص٤٨١ من ديوان شكرى الجامع .

يتوهم أنه فى صالحه ، فالانسان كان — ومايزال — مخدوعا بدنياه ، وحركة الإنسان فى دنياه — فوق أنها وهم — يخدع بها الإنسان نفسه كما ينخدع الراكب العجلان بالشخوص التى يراها ، فيخيل له أنها سريعة العدو والفرار ، وما هى بذلك ، وإنما الراكب العجلان هو الذى يعدو ويسرع فى عدوه بين مرائيه — يقول « شكرى » فى قصيدته (الحياة والحق) (١) :

والموت ظل الله . أبشر إن دنا ... فى ظـــله أمن من الحسرات
ثبت الزمان ، ونحن نعدو عمرنا ... ونخال أن الدهر ذو نقلات
كالراكب العجلان ينظر حوله ... فيرى الشخوص سريعة العدوات
والعيش كالحرباء يخدع لونه ... والحس بعض حبائل الخدعات
فالمرء يسرى وهو قيد مكانه ... سكن الوجود لشدة الحركات

ومرة ثالثة يرى الشاعر الموت أصل الحياة ، ولولاه ماكانت هذه الحياة ، وذلك فى تصوره الموت بحراً ، والنفوس لآلىء ، والعيش فوق الموت كالموجات ، وفى تصوره الموتى يهدون الأحياء فى ظلمة العيش — يقول فى القصيدة ذاتها :

والموت بحر ، والنفوس لآلىء ... والعيش فوق الموت كالموجات

ويقول فى قصيدته (قرب الموتى) (٢)، مخاطبا أليفه الروحى — الميت — يستأنسه ويسترشده ويستهديه ، ويحن إلى سالف عهده ، وإن كان لم يحس ببعده عنـــه وانفصاله منه :

ياروح إلف أليف الموت والحفر ... قومى اسألى عن أليف الهم والسهر
أو فابعثى هاتفا بالليل يؤنسنى ... لو كان للميت من شوق ومن ذكر

(١) حـ٦ : ص ٤٣٨ من الديوان الجامع
(٢) حـ٨ : ص٦٣٩ من الديوان الجامع

وحلقى فوق قوم كنت زينتهم كالطير تهبط فوق الوكر فى الشجر
فإن نورك - نور النجم - يرشدنا ورحلة العيش تحكى رحلة السفر
أو كالملائك تهدى وهى خافية وتشعر النفس طهراً ليس فى السير
ماض من الدهر والأقوام يخبرنا أن لامسافة بين المهـــد والحفر

والقاعدة الأساسية لدى الشاعر هى ارتباط الموت والحياة برباط الألفة، كما يألف النقيض نقيضه، فلا ينبغى أن نستوحش الموت، فإنما الوحشـــة من الأحياء، ولا ينبغى أن نتشبث بالحياة بما يجرنا إلى المعاطب ... يقول الشاعر(١) :

أتظل موهون الجنان مروعاً قلقـاً من الآفات والأقدار
تخشى الحياة ولست تخشى ميتة هبها نصيب الموت فى الإصغار
قلقاً تطل على الحياة كأنما منها وقفت على الشفير الهارى
تخشى الحياة وكذبها وسفالها وصيالها فى قسوه الغدار
والحى يأكل من حياة مثيله لحس الضوارى للدم المدرار
وتطاول المغمور ينحو نابهاً كتطاول الغرقان فى التيار
متشبثاً منه بعطفى سابح ليجره لمهالك وبوار

ولا ينبغى أن تحزننا ضجة العيش، فسيخرسها الموت وتمل فيه السكون، وإنما يجوز لنا أن نتيح لأنفسنا فرصة الزهو بالعيش بسبب تربص الموت به. وهنا تبرز فكرته التى سبقت الإشارة إليها عن وجوب التلذذ بالعيش وعدم المبالاة بما ينغصه، مثلما يتلذذ السكران بخمره، غير هائب ما يقع حوله.

يقول الشاعر(٢) :

وهل يحمد الأقدار من كُلُّ عيشه أمانى — تدعو للـكمال — عظام

(١) الهاربون من القضاء : حـ٨ — ص٦٢٣ من الديوان الجامع
(٢) علالة العيش : حـ٥ — ص ٣٩٠ من الديوان الجامع

فلا تحزنن من ضجة العيش ، إنها سيخرسها مما يتاح حمام
لغلك بعد الموت تبغى ضجيجها وهيهات لا يصبى الرميم مرام
ستسكن بعد الموت حتى تمله وليس بمن تطوى المنونُ سآم
وإن ضياء العيش يزهو رواؤه لأن حاطه بين الأنام ظلام
وما العيش إلا خمرة أنا شارب فهل رائعى أن الخطوب أمام
وهل يفرق النشوان من صرف دهره ويشقيه من وقع الخطوب لمام

و « شكرى » يفلسف هذا كله بقوله[١] : « إن نعيم الحياة مستجلب من خوف الانسان من زوال النعيم ، لأن ذلك الخوف يدفعه إلى التذاذ النعيم ، أكثر من التذاذه إياه لو كان ذلك الخوف من فقدانه غير ممتلكه » ، وبقوله فى قصيدة (كلمات النفس)[٢]

فيا عجبا كيف نرجو الحياة ولا يعرف المرء معنى الحياة
ولو عرف المرء معنى الحياة لما جهل المرء سر الممات

فالفناء — عنده — فيه معنى من معانى البقاء[٣]. ومن ثم يكون فى الاهتمام بالفناء والموت قبول للظروف التى يوجد فيها الانسان ، وهذا يؤكد حقيقة الحياة نفسها[٤] لكن « شكرى » لا ينسى أن الموت سيغتال كل ما تزدهى به الحياة : سيغتال البسمة والدمعة ، واللذة والألم ، والجمال ، والسلطان ، والسطوة ، والقوة ، وسائر علالات العيش[٥]:

كأن لم يلح منهم إذا الموت غالهم وميض الثنايا أو بكاء المحاجر
ولم يعرفوا الآلام تحسب أنها ستخلد فى جسم إلى الموت صائر
وأين ولوع بالجمـــال كأنه زعيم بتخليد الوجوه النواضر

---

(١) الثمرات . ص٥٣
(٢) ج٢ ص ١٨٤ من ديوان شكرى الجامع
(٣) الثمرات . ص٣٦
(٤) ستيفن سبندر : الحياة والشاعر — الترجمة العربية لمصطفى بدوى، ص١٣٥ .
(٥) خطرات فى الحياة والعيش عند رؤية جمجمة : ج٨ص٦٥٦ من الديوان الجامع

وأين جيوش دكت الأرض خيلها مضت حيث لا تمضى خواطر شاعر
وأين الغزاة الفاتحون وقد بدوا كما تبعث الأشباح نفثة ساحر

ولقد جرب « شكرى » أن ينقل الغزل إلى ساحة الموت ، والغزل مما تزدهى به الحياة ، ونتركه ليحدثنا عن تجربته ، وهو يخاطب حبيبته(١)

أنت أنت التى هجرت لحاظى ، وتركت الفؤاد يشكو أواما
أنت فى الموت والحيـــاة تقودين فؤادا متيما مستهاما
عانقينى ، فرب صدر خفوق ظل يحنو عليك عاماً فعاما
واجعلى ساعديك عقداً لجيدى ، واجعلى معصميك فيه زماما

وأجابته لبغيته وعانقته بهيكلها العظمى :

عانقتنى ، فعانق الداء جسمى ، وكأن الخيال صار رماما
ورأيت العظام تعرى من اللحم ، وقد فارق البهاءُ العظاما

وسرعان ما تحول عنها وهو ينهرها :

أبعدى فاك ذاك عن شفتى الظمأى ، فقد أبدل الرضاب لغاما
بينما أنت كالضياء بهاء ؛ إذ تعودين رمـــة تتحامى !

ونترك جانبا سلبية الغزل المحب ، وإيجابية المحبوبة ، فلعل غزل الموتى يختلف عن غزل الأحياء ، ويكفينا منه أن « شكرى » يحس للموتى وجودا ، ولذا يعيش بينهم ، ويحادثهم ، وقد رأيناه يقف بين القبور ، ويذهب خياله بعيدا ، فيسمع صوتا للأموات مختلف الرنين ، فهو يقع على سمعه كما يقع : خرير المياه ، أو حفيف الغصن ،

(١) الجمال والموت جـ ٢ ص ١١٥ من ديوان شكرى الجامع

أو صدى الطبل ، أو إعوال الثكلى ، أو أنين الريح ، أو عواء الذئب ، أو لجة البحر أو أنين الليل ، أو حشرجة الصدر(١):

ألا إن للأموات صوتاً كأنه … خرير المياه الجاريات على الصلد
ويحكي حفيف الغصن في لين وقعه … وطوراً كأصداء الطبول على بعد
ويعول أحياناً كإعوال ثاكل … رمتها صروف الدهر في الولد الفرد
يئن أنين الريح عند خفوتها … ويعوي عواء الذئب في المهمه القفر
ويصرخ أحيانا فيحكي صراخه … صراخ العباب الغمر في لجج البحر
يئن أنين الليل إن هدأ الورى … وطوراً له صوت كحشرجة الصدر

والمنقول عن عدد من شعراء الغرب الرومانتيكيين — وفي مقدمتهم «جون كيتس» — أنهم اتخذوا القبور والموت موضوعاً لشعرهم ، ويحتمل أن يكون « شكري » قد تأثرهم ، مطمئنا إلى إعجابه بهم ، واتفاقه معهم في المشاعر .

و « شكري » لا يخاف الموت جبنا ، وإنما يهابه لعدم معرفته حقيقة ما يجري فيه، كما يحكي عن غلام مريض يقول لأمه(٢):

العصافير في الرياض تغني … لا كجسمي تحت التراب دفين
كنت في العيش مثل هذي العصا … فير أغني في وكري المأمون
فألاحت لي المنون بوجه … أي راء يرضيه وجه المنون
ليس ما بي خوف الجبان ولكن … خوف جهل لا خوف جبن وهون
كالمكان الخراب يبعث في النفـ … ـس خشوعا ورعدة للظنين
فهو يخشى وليس يعرف ما يخـ … ـشى ووجه الفناء غير أمين

---

(١) صوت الموتى : ح٢ ص ١٥١ من ديوان شكري الجامع
٢) ج ٢ ص ١٢٢ من الديوان الجامع .

ويعجب « شكرى » ممن ينشدون الموت سهلا هيناً ليناً كأحلام النيام فيدعه لهم : تاركين له ميتة لا حلم فيها ، لأنه لا يخشى أى شىء ، مادامت عظامه قد هدأت ، وفى ذلك يخاطب (العقاد) بقوله[1] :

خذ المـــوت المحلى بالأمانى   وبالأحـلام تطرق فى الظلام
ودع لى ميتـة لا حـلم فيها   فما أخشى وقد هدأت عظامى

على أنه مرة أخرى يطلبه لذيذاً كلذة العيش إذ حلا ، أو كلذة النعاس ، أو كلذة الخمر ، أو كلذة الماء للصادى كقوله فى قصيدة (شقوة العيش[2]) .

فياموت أقبل لا كإقبال رائع   مرير كطعم العيش يؤلم من حسا
ولكن كترنيق النعاس بمقلة   طواها الكرى أومثلما تفعل الطلا
فإن حياتى غلة ريهـا الردى   خير شراب المرء ما نقع الظماء

وقد جمع « شكرى » فى قصيدته (الموت)[3] مارآه فيه من مزايا ، ، وألقى إليه مقاليد الأمل الذى تفتقده الحياه . فالموت : معبد نضحى فيه بالعيش قربانا ، ومنصف المظلوم ، ومهرب الملهوف ، وآسى كلم الحياة ، وهو الأم التى ترأم وليدها ، وهو معز الصاغرين ، ومذل الجبابرة العتاة ... وإنه ليدعوه ويحبه ، ويطرب له :

أيا معبداً قرباننا فيــه عيشنا   نضحى به لذاتنـــا والأمانيا
ويا منصف المظلوم من كل ظالم   ويامهرب الملهوف يخشى الأعاديا
ويا مبرئاً كلم الحيــاة بطبه   جلالك أن قد راق ماكنت شافيا
فياموت يا أما أطالت تصامماً   أما لك قلب يرأم الولد حانيا

---

(١) الموت والنخل : جـ ٢ . ص ١٥٣ من ديوان شكرى الجامع ، وهى جواب عن قصيدة العقاد (أحلام الموتى) : ص ٩٣ من ديوان العقاد . طبعة سنة ١٩١٦ وص ٩٩ من طبعة سنة ١٩٢٨ وص١٠١ من طبعة سنة ١٩٦٧ ، وفيها يتمنى أن تصله أنباء الدنيا فى قبره ، وأن يحظى فيه بأحلام النيام .

(٢) شقوة العيش : جـ٥ ص٤٠٥ من ديوان شكرى الجامع .

(٣) جـ٧ ص ٥٤٢ من ديوان شكرى الجامع

ألا أرضعيني منك يا أم درة   لأذكر ما قد كنت في العيش ناسيا
فياموت أقبل باسط الوجه طلقه   فإن حميم الصحب ما كنت لاقيا
أحبك حب الصب وجه عشيقه   لينقع ثغر منك صديان ظاميا
وكم طربت أذني للحن أجدته   أعد منك لحنا يترك السمع واعيا

والموت شبيه الله في الرحمة ، وإن بدا الموت في رحمته قاسيا ، والموت جواره مأمون ، والموت من ظواهر الوجود(١) فاذا كنا قد رزقنا في حياتنا ما نطعمه فلماذا لا يرزق الدود بعدنا(٢) ولو فهم الأحياء طهر الموت ما أوغروا في الحقد والعداء ، بل إن فيه عدالة ومساواة بين الجناة والمجني عليهم :

رزقنا فلم لا يرزق الدود بعدنا   أليست فضول العيش خلقا دواليا
ولو فهم الحي الحمام وطهره   لما أوغر الحقد الكمين الأعاديا
غدا يستوي الجاني ومن ذاق شره   كأن لم يكونا مستكينا وجانيا

ثم يسجل وصيته(٣) فيخاطب اثنين من أخلائه — على عادة القدامى من شعراء العرب — فيوصيهما أن يدفناه في حفرة من حفر من الأرض — بعيدة عن مسير الغيد الحسان ، وأن يجنباه مايذكره العيش ، حتى لا يأسى عليه ، لأنه مايزال مشدوداً إليه ، وكفاه زهر على قبره يسقى من دمه :

خليلي خطا لي من الأرض حفرة   أريح بها قلبا عن الناس ساليا
ولا تسمعاني الطير تشدو بنغمة   فآسى على العيش الذي كنت قاليا
ولا تمهدا للغيد فوقي موطئا   فأحنو لحسن لم أزل منه صاديا
عزائي أن الدهر تسقيه حفرتي   دمي ، ويروح الحسن بالزهر حاليا

(١) أنظر أيضا ص٣٧ من كتابه : الصحائف
(٢) انظر أيضا فصل (ظل الموت) ص١٠٧ من كتابه : الاعتراف
(٣) وهناك عدد من شعراء العربية نعوا أنفسهم وأوصوا وصاياهم : انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج٣ ص ١٩٨ وما بعدها طبعة الاستقامه

هذا . وكان الموت « لشكرى » بالمرصاد ، يطالعه فى كثير من شعره الذى لم يخصصه للحديث عن الحياة والموت ، فهو دائما يستدعى الموت ، ويقبل عليه، ويوحى إليه بخواطر ، ألقى المجتمع السادر فى غيه عليها ظلاله . وفى شعره الغزلى بخاصة نشهد هذه الظاهرة فى مواقف الهوان والهجران ، حين يحلو له أن يشهر سلاح التشفى بالموت من حبائبه ، وقد عددنا له فى هذا وذاك أكثر من مائة قصيدة ومقطوعة (١).

(١) نذكر على سبيل المثال — دون اختيار : رثاء الحب — المحب الهالك (بالجزء الأول) وعتاب — ضوء القمر على القبور ، (بالجزء الثانى) والحب والموت — ليتنى وإياك (بالجزء الثالث) والجمال المنشود — أماح الناس (بالجزء الرابع) وشقوة العيش — قبر فى القلب (بالجزء الخامس) ، والفصول — عالم الحسن (بالجزء السادس) وفطنة الحسن — آية الحسن (بالجزء السابع) ومرأى الجمال وذكرى الجلال — فى القافلة (بالجزء الثامن) .

الفصل الثالث

الغيبيات

فيما درسناه من شعر (شكري) كثير من المراقف المتعاكسة — والمتناقضة أحيانا — ومردها فيما عرضناه حالته النفسية ، التي تدنى أمله أو تدنى يأسه ، وتليح له بالبشر أو بالألم . وهذه الحالة النفسية — أو المزاج النفسي — نراها واضحة في شعره عن الغيبيات ، فهو تارة يستسلم عن اقتناع للقدر ويؤول ما يأتي به تأويل المؤمن الصادق ، فتبدو عليه مسحة الرضا والاطمئنان ، وتارة يتمرد على قدره ، ويعد الصبر عن قضائه عجزا ، وربما أصابه مس من الكنود ، فنفى عن قدره الفطنة . وفي قصيدتيه (مرحبا بالأقدار) و (لا مرحبا بالأقدار) وقد نشرهما متتاليتين[1] دليل على اضطراب حالته النفسية إزاء القدر .

فني القصيدة الأولى يعلن عن يقينه في قسمة القدر ، وفي الصبر ، وفي أن ما يبتلى به من الإيلام والإثخان حتم لا يدفع ، وفي أن ما يأتيه نعيماً هو الأصل ، فإن أصابه غرم « فبعض الغرم إنعام » ، ويرحب « بالذي يأتي الفناء به » ترحيباً عن حزم خال من الأحقاد ، شأنه شأن المزور « إذا ما زاره ملك » ويقول :

الظمء والجوع والأسقام قاطبة	والذل والفقر تقدير وارغام
وإن لجأت إلى موت ألوذ به	فالموت عن قدر والعيش أعوام
فان فررت فمن حتم إلى قــدر	قد استوى فيه إحجام وإقدام
والنفس كالخيل والأقدار رائضها	فالبؤس ركض ورغد العيش إجمام

هذه هي صورة النفس المطمئنة الحكيمة ، والحكمة — فيما نقل « شكري »

---

(١) ج٦ ص ٤٥٧ من ديوان شكري الجامع

عن «جوته» أن يجعل الإنسان إرادته فيما يريده له القدر، حتى إذا أصابه منه شيء كان كأنما شاء أن يصيبه به القدر(١) .

أما الصورة الأخرى فقد يتمنى «شكرى» أن يكون للقدر قلب وفطنة ، و «شكرى» ينكر عليه وقد خلا من القلب والفطنة — أن يكون رحيماً ، ثم يثور عليه ، ويحاول التخلص من إمرته الثقيلة :

ولو كان هذا الحتم قرنا قتلته فإمرته حمل على النفس يثقل
ولو كان سعداً خلت إنى ملكته ولكنه نوء من الشر مسبل

وبلغ من ثقل القدر على نفسه أن يتوهم أن الصبر لا يصبر على القدر إذا ابتلى به ، وأن الخطب يعجز عن وظيفته إذا نابه بعض من شر القدر :

ولو أن صبراً كان روع بالذى بليت به ما كان للصبر موئل
ولو أن خطبا نابه بعض شره لأصبح لا يصمى ولا يتغلغل

ويختم هذه الصورة بأن يتمنى أن يرزق نفساً تجد فى الشقاء نعيمها كطائر «السمندل» الذى يزعمون أنه إذا انقطع نسله وهرم ألقى نفسه فى النار فلا يحترق فيها ، وإنما يعود إلى شبابه (٢)

ويعود إلى الشاعر يقينه فى قصيدته (الإيمان والقضاء) (٣) إذ يرى أن القضاء حاكم عادل ، سيفه الشقاء ، فكل ما يأتيه عدل ولو كان لنا منه بلاء ، وأننا إنما نشقى شقاوة الجهلاء ، لخفاء حكمة البلاء عنا ، وأننا :

---

(١) شكرى : فن أبى نواس مثال لطرب الفنان بفنه — الهلال : أغسطس سنة ١٩٣٦

(٢) راجع مادة (سمندل) فى لسان العرب والقاموس المحيط

(٣) ج ٢ /١٠٨ من ديوان شكرى الجامع . ونشرت فى الجريدة : ١٩١٠/١١/٢٢ تحت عنوان (الايمان برء من الشقاء)

لو رأينا منابت العدل فيها | لنعمنا بالعيشة الخشناء
لو رأينا مطالع العدل منها | ماشكونا مضاضة الأرزاء

وفى هذه الرؤية التى يسميها هو سكنات الإيمان « برء من الحزن ، ومأوى هارب من قضاء » .

ويتشوف « شكرى » إلى معرفة مايخفيه قدره عنه ، أى إلى استطلاع الغيب ، لأن تلك المعرفة — لو أمكنت — تجعله يرتب معاشه ، فهو يقيس لحظه وبصره قياسا دقيقا ، ويتقى عدوه ويصفى صديقه ، ويؤمن حبه(١) .

هل عندك الخبر والخبر | عن معلن السر ياقـــدر
فيه لى أتق الأعادى | وأعرف الصـــادق الأبر
فيعرف الخل أن قلبى | أصفى من العذب فى الغدر

كما تجعله تلك المعرفة - لو أمكنت - مطمئن البال ، يتسلى بسعادة الدنيا الآتية عن شقائها الحاصل ، أو تدفعه إلى بخع نفسه إذا أيقن أن الوجود مآله النحس والشقاء(٢)

فتريح الفؤاد مما يعانى الـ | طرف من لؤم هذه الأحوال
أو تميت النفوس بالنبأ الأعـ | ظم : أن الوجود نحس المآل
فهى بشرى محمودة أو نعى | لمساع مالهـــا للفوات

وتسيطر على الشاعر ملذاته الدنيوية ، فهو يتحسر ألا يجدها بعد هذه الحياة ، ونشم فى كلامه رائحة الشك فى وجود حيـــاة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، فهو يقول (٢) :

كيف تعنو الأقدار للمرء والمـ | ـرء ستبلى أعماله كالرفات

---

(١) مفتاح القلوب : جـ٨/٦٦٦ من ديوان شكرى الجامع .
(٢) أنا والغيب : جـ٢/١٦٨ من ديوان شكرى الجامع ، والقصيدة ثلاثية الروى .

ويح شمل الصحاب لو صدق القول : أن لا حياة بعد الحياة

وأحياناً يخطر خيال « شكرى » فى عالم الأرواح (خطرة عن عالم الحس)[١] ، حيث يرقب حركات الأبد ، وهو يفكر أن يجد النفوس صريحة على حقيقتها ، غير مكبلة بجسومها ، وأن يرى الأمور كلها مقضية وينظر خطراته ومطامحه ، ويشاهد تاريخ البشرية ولكنه لم يجد من أولئك شيئا ، وكان قد استشعر غربة ووحشة ، وصدى لعيشه ولعالم حسه ، فالتمس الأوبة اليه فى طريق شاكة ، وما اطمأن إلى مستقره فى عالم الحس حتى استيقظ ذهنـــه ، فألقى محاذيره من أن يضل الناس بخيالاتهم كضلاله بخياله .

والعبرة فى هذه الخطوة أن « شكرى » — وهو ينشد فى عالم الأرواح ما يفتقده فى واقعه من الأمن والصراحة — قد اطمأن إلى ذلك العالم بعض الطمأنينة . وإنه ليطمئن اليه مرة ثانية ويرى فيه أرواحا طليقة ، وظيفتها المرح والنشاط ، وماهيتها الجمال ، والطهر ، وصفاء الضمير ، والبراءة ، والغرارة[٢].

ترقص مثل النـور فى روضه النضـير وماءه الطهـــور
كرقصـة البـدور فى صفحة الغـدير تنفـح بالعبـير
كنعمـة الزهـور صافيـة الضمـير كلمعة البلور ... الخ

ويطمئن « شكرى » إلى عالم الأرواح مرة ثالثة ، فيزوره ستة من أكمل الملائكة : ملك الفضل الحيي طرفه ، وملك الطهر الصبيح وجهه ، وملك الحق الباهر نوره ، وملك الرفق الآسى لحظه ، وملك الجود الضحوك بشره ، وملك العفو الرجيح رأيه ، وهم « شكرى » أن يقبس من أنوارهم ، ويشم الخلد من أنفاسهم ، ويطرب من ألحانهم ، ويحس فى نفسه صورة جمالهم[٣].

---

(١) خطوة عن عالم الحس : حـ ٥/٤١٩ من ديوان شكرى الجامع
(٢) حلم بالأرواح الطليقه : حـ ٦/٤٨٨ . من ديوان شكرى الجامع .
(٣) زورة الملائكة ٦/٤٨٠ من ديوان شكرى الجامع

وها هوذا يخاطبهم ترحيبا بهم :

مرحبا بالملأ الأعلى الذى شرفت دارى منه والفناء
طهرت نفسى فى أضوائكم مثلما تطهر أجسام بماء
وشممت الخلد من أنفاسكم نفس يشفى من الداء العياء
أسمعونى منطقاً أحيا به يطرب النفس بألحان العلاء

ونحسب أنه اختار هؤلاء الملائكة الستة بنعوتهم تلك ، لأنه يفتقدها فى واقعه ، فموضوع زيارتهم رمز لأمله فى سيادة عناصر الكمال، التى نعت بها الملائكة الزائرين، ورمز لثورته على ما يسود واقعه من العناصر المقابلة .

وقد استخدم « شكرى » الرمز (الثورى) مرتين أخريين فى قصيدتين تعدان من عيون الشطحات الخيالية فى الشعر العربى ، صدرتا(١) عن تجربة وجدانية أصيلة ، وفكر جرىء ، لم يعهد فى جيل « شكرى » .

القصيدة الأولى : (ليتنى كنت آلها)(٢) ، وهى فى سبعين بيتا ، تمنى فيها الشاعر أن قد كان « فى السماء إلها ، نافذ الأمر فى شئون الوجود » يضمه بين جناحيه ويسطو على الشقاء ، ويحنو على الأنام ، ويقيم فيهم العدل ، ولا يحكم عليهم القيد ، ثم فرض « شكرى » بشريته على هذه الألوهية ، فأطال الحديث عن متعته ببلاطه ، ومتعة بلاطه بالملذات ، وأبرز ذلك فى صورة لا تدع مجالا للشك فى أن خياله استشرى ، وأنه غلفه بمعارف غير وثيقة ، فندماه من الملائكة « من الظباء الغيد » أراحهم من واجبات التمجيد ، وأعفاهم من الصلوات ، لأنهم « أجادوا المديح والنغم العذب » وهم فى خدمته كما يخدم العبيد السادة ، وعلاقته بهم علاقة غزل وعناق « وارتشاف من الرضاب البرود » ، وكيف لا ؟ وهم يفتنونه « بمبسم وقوام ، وبجيد وأعين

(١) السحرتى : النقد الأدبى من خلال تجاربى ص ٦٢ ، والشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١٥٨

(٢) ٢/١٢٤ من ديوان شكرى الجامع

وخدود ، ويمدون له الشراب ويسقونه على النغم العذب ، ويقطعون معه الليالى سمرا ، وقصفا ، ومتعة بالحسان الرود « حلين بالتجريد » ، لا يبالون أن تضج الدنيا من لهوهم . فإذا فرغ هـذا الإله البشرى لشئونه فهو يسخر من الخائف الجبان ، ويطرب للعامل المكافح ، وينشر الحب ، ويلهم الفن . وفى رأينا أن هـذه هى اللحظات الخالدة فى حياة هذا الإله البشرى : لأنه اصطنع فيها الجد :

كم سخرنا من خائف غير ندب ... إنمـــا الجبن آفة الرعديد
وطربنا من عابد العمل الجم ... عظيم الفؤاد غير قعيـــد
أنا والحب خالدان . كلانا ... ذو صيـــال ونشوة وجنود
هو تربى والكون طفل وليد ... وسميرى ومسعدى وعقيدى
يا جمـال الحياة من علم العشا ... ق رشف اللمى ولثم النهود ... إلخ

ثم ترتد إليه طبيعته البشرية ، فيسوس الأنام بالحلم ، حتى يبين له أن ذلك غير سديد ،ويتسمع هجاءهم ، ويرد عليهم ، ويناهضهم ، ويسخر بوعيده منهم ، ويهتاج للحياة دمه ، فيحيا فى قلبه طموحه ، ويسوغ له العيش وإن مر .

وينهى القصيدة بالسخرية من نفسه ، ومن ألوهيته هذى ؛ قائلا : « المقصود من هذه القصيدة تحذير الناس من نسبة الصفات الإنسانية إلى ذات الله ، وأن يقيسوا قدرة الله بقدرة الناس ، ويقصد أيضاً السخر بالذين ينتقدون نظام الكون ، ويدعون أنهم لو وكل إليهم أمره لأصلحوه »[1] ، ولهذا رضى أن يعزل من ألوهيته عزل الملوك المترفين من ملكهم ، ولم يجد أعظم فى تصوير جلالة عزله من أن يشبه نفسه بالسلطان « عبد الحميد » يوم عزل ، ولكنه يستدرك ، فينفى أن يكون قد بغى مثل مثل بغيه ؛

عزلونى عن حكمها فكأنى ... يوم ذاك السلطان عبد الحميد

---

(١) المصدر نفسه .

غير أنى قد كنت أحسن عهداً   وعهود البغاة غير عهودى

ويعترف أنه لم يكن يصلح لما نصب نفسه له ، وإلا هلك الناس ، لأنه غير أصيل ، لا يملك إلا قلباً جليداً ، ولساناً رهيفا ، وبيانا نضيداً ، وهى لا تكفى لهذه الصناعة :

ولو انى بقيت فى الدست حينا   هلك الناس من زمان بعيد
فكأنى قرد يقلد فيها   ربه . بئس ذاك من تقليد
أيها الغافلون قوموا جميعا   واسألونى عن عدتى وعديدى
لم تدع لى نوائب الدهر منها   غير قلب على الحياة جليد
ولسان مثل الحسام رهيف   وبيان كاللؤلؤ المنضود

والقصيدة الأخرى من الشطحات الخيالية : (حلم بالبعث)[1] وهى تصور شطحة خيالية عاتية ، بدأها من رؤيا منامية رآها فى وجدانه ، حيث وجد نفسه رهن قبره ، وحوله رمم الموتى ، فلم يأبه لهذا المنظر الكريه ، واستجم ، خاليا من شواغل الدنيا والناس ، ومطهراً من خبث الحياة ، لا يسعى لعيش شأنه العدم ، ولا لأمر ليس يعرفه :

فلا بكاء ولا ضحك ولا أمل   ولا ضمير ولا يأس ولا ندم

وبقى فى لحده ناعما ، ومرت عليه قرون ما وعاها عدا ، حتى بعث ليوم القيامة ، ونتركه يتحدث عن قيامته ، لاحين أنه يجدف فى كل موقف منها تجديفا ، وأنه يثور ثورة فكرية مقنعة على سوءات الحياة الدنيا لا الآخرة :

مرت على قرون لست أحفظها   عداً ، كأن مر بى الآباد والقدم
حتى بعثت على نفخ الملائك فى   أبواقهم ، وتنادت تلكم الرمم

---

(١) ح ٣/٢٤١ من ديوان شكرى الجامع

وقام حولى من الأموات زعنفة ... هوجاء كالسيل ، جم لجه عرم
فذاك يبحث عن عين له فقدت ... وتلك تعوزها الأصداغ واللمم
وذاك يمشى على رجل بلا قدم ... وذاك غضبان لا ساق ولا قدم
ورب غاصب رأس ليس صاحبه ... وصاحب الرأس يبكيه ويختصم
ويبحثون عن المرآة تخبرهم ... عن قبح ماترك الأجداث والعدم
جاءت ملائكة باللحم تعرضه ... ليلبس اللحم من أضلاعنا الوضم

فهذه القيامة الوشعة لا يمكن أن نتصورها إلا بخيال مصورها الذى ينقل سوءات عالمه إلى العالم الآخر . ثم إن الشاعر لم يعر ما حوله من ضجة هائلة ، فمضى راقداً ليوهم الملائكة أنه لا يبالى أمر البعث — مما قد يوحى إلينا أنه يشك فى أمره — فأعجلوه من كسله ليقف موقف الحكم بين يدى الله ، ولما أفاق استغفر ربه وأناب ، واعترف بلغوه وعبثه ، وجناية كلامه ، واعتذر بأنه يقصد « السخر بالناس ورذائلهم التى لا تكاد تفارقهم حتى عند البعث » :

أستغفر الله من لغو ومن عبث ... ومن جناية ما يأتى به الكلم

ولا يخامرنا شك فى أن مثل هذه الشطحات الخيالية ، لا تصدر إلا عن نفس استبد بها القلق واليأس ، فمالت إلى الجانب الضعيف من الإيمان ، والرقيق من اليقين . لقد حاولت هذه النفس أن تستشف الحقيقة فصدمت، أو حاولت الكفر فعاقها عائق الخوف أو الحذر أو الجبن الاجتماعى ، ولذ لها أن تظل هائمة شاردة لا ترتد إلى حظيرة اليقين الصحيح فاستمرأت الشك والتمرد . وأما قول « شكرى » هنا : إنما أراد السخر بالبشر وتظلهم الانحلال فى الآخرة كما هو واقع فى الدنيا — ومثله قول العقاد عن قصيدته (ترجمة شيطان)[1] ؛ إنه استوحى أحداث الحرب الأولى — فهو قول يمليه العقل ، أو قول يطفو على سطح الإيمان لحظة المواجهة ؛ ليرد صاحبه عن نفسه

---

(١) العقاد : ديوان العقاد ج ٣ . ص ٢٣٨ طبعة ١٩٢٨ وص ٢٤١ طبعة ١٩٦٧

مظنة الرقة فى العقيدة ، وليجتلب العطف عليه وعلى أدبه ، وليبعد عنه الملام ، وربما ليجتذب الثناء على فنه .

ونعود — تقية — إلى اعتذار « شكرى » فلا نرفضه ، وربماكان صادقاً فيه ؛ بدليل أنه لم يتحول عنه ، ففى رسالة منه إلى « نقولا يوسف »(١) طلب إليه ألا ينشر هاتين القصيدتين ، واتخذ من اعتذاره نفسه مبررا لطلبه ، وفى رسالة أخرى منه إلى « محمد رجب البيومى »(٢) أذن له فيها أن يطبع كتبه ، وقال له : « إنما أرجو أن تفحص فى هذه الكتب ، وأن تسقط أى مروق أو إلحاد غير مقصود » ؛ فهو إنمايريد إسقاط ما كتبه مما فيه مروق أو إلحاد ، لأن وجدانه — كمسلم — ممتلىء بالقيم الروحية ، فاذا كانت هذه القيم لم تتضح له فى فورة الشباب ، فها هو ذا فى سن الشيخوخة قد وصل إلى مرحلة الاستقرار العاطفى ، الذى يملى عليه الاتزان ورجاحة الفكر .

ولقد كان « شكرى » فى شبابه — على نحو ما رأينا — أكثر استعداداً للتجديف ؛ وإنه ليعترف فى كتابه (الاعتراف)(٣) أنه ما كان يبالى فى حب الحياة كل رادع ، وأنه كان يحس أن نفسه إله عظيم له أن يفعل ما يشاء ، ويعترف أيضاً بأنه كان كثير العبادة والأذكار ، والقراءة فى الدين ، والتأمل فى أحوال الفسقة ، فيردعه هذا عن مواقعة الشهوات ويعنف نفسه أن دنت من الفكر فى هذه المواقعة، تعنيفا يتصوره عقارب وثعابين وجمرات نار أرسلها الله لعقابه ، ثم ترك العبادة والأذكار إلى كتب الشعر والأدب ، ففطن إلى جمال الحياة ، وواقع الشهوات ، ثم اتجه إلى الشك أو البحث ، وهو شك أو بحث أباح له العنان ، فجرى به فى كل مكان حتى يريد أن ينزل الله من عرشه ، وجعل يتساءل : لماذا خلقنا ؟ ومن نحن ؟ وإلى أين نسير ؟ وأخيراً رجع إلى الإيمان ليفيد منه أن للوجود روحاً كبيرة لها حياة ولها شخصية .

---

(١) مؤرخة : ١٩٥٥/٦/٢٦ .
(٢) مؤرخة : ١٩٥٨/٥/٢٢ .
(٣) ص ٢١ وما بعدها .

هذه هى عناصر قصة العقيدة عند « شكرى » ، تأملات هائمة غير مستقرة تتجه به تارة إلى السلامة ، وتارة إلى الشطط ، وتصورات للعقاب تجرمه ، ثم ما يلبث أن يبيع دنياه بأخراه ، فيواقع الشهوات ، ثم يراجع نفسه فى محاولة لتقويم مسلكه ، وكان على أعراف دنياه وهى تشده إليها ، وهناك شىء فى باطنه يشده إلى الآخرة ، فوقف لا يستطيع أن يحسم موقفه ويحزم أمره ، ولا يملك إلا أن يتساءل ، وأخيراً يهتدى إلى أن للوجود روحا كبيرة لها حياة وشخصية ، فيدرك أن هذا هو الإيمان . وهذه هى قصة كل شاب فى مصر يلم بطرف من الثقافة الدينية ، ولا تعطيه المدارس والمجتمع زادا من اليقين يتزود به فى رحلة الحياة .

وقد جاء القول فى رقة عقيدة « شكرى » مبكراً ، يذكر هو ذلك فى مقدمة الجزء السابع من ديوانه [١] ، مشيراً إلى أن تساؤله أو امتعاضه من مظاهر الشر ليس قلة فى الإيمان بل أنه غاية الإيمان ، وإلى أن « الذى يتهرب من الله إلى نفسه ، وينكر آياته فى الوجود يجد الله فى نفسه فى خير نزعاتها ، وأن فى الله حاجة من حوائج النفس البشرية . وكلما خفيت عنا أدلة وجود الله ؛ لعظم الشر والإثم ، كان ذلك الخفاء أدعى إلى تطلبه ونشدانه والإيمان به على الوجه الصحيح » . ويقول : إن قصيدته (ليتنى كنت إلها)[٢] قد أسىء فهمها ، وفات من صفت نفوسهم من سوء النية أن نسبة الشاعر سوء الفعل إلى ذلك المتطلب مرتبة إله يريد أن يصلح نظام الكون والحياة — « هى غاية الإيمان ، لبيان أن المرء ينتقد ، ويتسخط الشر والإثم ، حتى إذا حكم أتى الشر الذى نقمه » ؛ يشير بذلك إلى أنه لم يجعل أفعال هذا المتطلب مرتبة الإله فى القصيدة حميدة رشيدة ، وقد ظل « شكرى » إلى أخريات أيامه تؤرقه هذه الظنة ، فكتب إلى نقولا يوسف « ... بعض الناس ينكرون علىّ الوطنية والعقيدة الدينية ، وهذا متعب جداً ، خصوصا فى هذا الوقت ، مع أنه ظاهر جدا خلاف ذلك »[٣] .

---

(١) مقدمة الجزء السابع : ص ٥٠٤ من ديوان شكرى الجامع ،

(٢) ج ٢/١٢٤ من ديوان شكرى الجامع

(٣) الرسالة المؤرخة : ١٩٥٥/٨/٢٣

ونحن – تقية أيضاً – ندعم دفاعه بقصيدتين ، نلمح فيهما صفاء إحساسه الديني. وإحدى القصيدتين : (صوت الله) ،(١) سنتناولها في الفصل الآتي ، والقصيدة الأخرى : (الحياة والعبادة) (٢) ، يرى فيها الدين يرتفع بقوى النفس ، ويفك عنها قيودها من اليأس والخمول ، ويراه في السعي الجاد ، وفي اتقان العمل ، وفي القوة والجمال ، وفي الصفاء الروحي ، وفي عبادة الله بالجهاد والتفكير ، ويرى شهادة العقيدة في مناجزة الهموم والأدواء ، ويرى خير العبادة في تحمل الشقاء وآلامه . وبعبارته هو : « إن الدين ليس غاية ، إنه واسطة يعرف بها المرء عظم نفسه وعظم الحياة » (٣)

وفي القصيدة يقول « شكري » :

أكذب الدين ما ينيم قوى المر	ء كما يخرس الرياح الركود
إنما الدين أن تفك عن النفـ	ـس من اليأس والخمول قيود
إنما الدين أن يجد مجد	أعمل السعي ، أو يجيد مجيد
إنما الدين قوة وجمال	وحياة وعدة وعديد
كيف يدري جلالة النفس غر	أزعجته بوارق ورعود
كيف يدري جلالة الله غر	حركته ضغائن وحقود
اعبد الله بالجهاد وبالتفـ	ـكير . والعقل عابد معبود
إنما هذه الحياة جهاد	والجبان الموهون فيها جحود
خلق المرء كي يناهض أمراً	فهو في الموت والحياة شهيد
كتب الصبر في الحياة علينا	فالبس الصبر فالعظيم جليد
عش شهيداً تناجز الهم والداء	إذا أم حتفه الرعديد

(١) صوت الله : حـ ٤/٣٤٩ من ديوان شكري الجامع

(٢) الحياة والعبادة : حـ٣/ص١٠٩ من ديوان شكري الجامع

(٣) الصحائف ٠ ص ٢٩

الفصل الرابع

خطرات صوفية

مما تدور حوله العقيدة الصوفية (وحدة الوجود) ، والشعر الصوفى يدور حولها أيضا ، كما يتطلع دائما إلى اللمحات الإلهية فى مظاهر هذا الوجود ، واستجلائها ، ونجد هذا التطلع فى شعر (شكرى) فى الطبيعة وفى الحب ، مما سنعرضه فى مكانه بمشيئة الله .

وقد قصدنا أن نعرض هنا — امتدادا لما لمحناه فى ختام الفصل السابق — خطرات فى صفاء إحساسه الدينى ، اخترنا أن نصفها بالخطرات الصوفية ، لأنها تمت إلى الصوفية بسبب ، ففى هذه الخطرات تدريب على الطهر النفسى ، والعبادة بالعمل ، وبالمعاناة كما ألمح إلى ذلك ، شكرى ،[1] وعلى الرضا بغذاء الفؤاد من الحزن والسرور[2] وعلى الصبر الذى يعين على الطموح ، والصبر الذى يعين على اليأس (٣) وعلى زهادة فى العيش بحسبان أن الرضا برغده خيانة للآمال وخيانة للعقيدة (٤) ، ودعوة إلى هزم الشيطان ممثلا فى الحسد : بمقاومته ، ومناهضته ، ودعوة إلى استطابة الراحة الأبدية (الموت) عندما تنتهى وظيفة الحياة (٥) .

هذه قصيدته (صوت الله — أو نجوى المؤمن)[1] ، يسمو فيها بصفاء روحه إلى مرتبة الكليم — عليه السلام — ليسمع مثلما سمع صوت الله :

وكلنا موسى لدى ربه   وكل روح حين يصفو عظيم

---

(١) صوت الله : حـ ٣٤٩/٤ من ديوان شكرى الجامع .

(٢) الحزن والسرور : حـ ٦١/١ من ديوان شكرى الجامع

(٣) صبر فى الأمل وصبر فى اليأس : حـ ١٩٨/٢ من ديوان شكرى الجامع

(٤) وعظ القدر : حـ ٢٧٣/٣ من ديوان شكرى الجامع ، والانسان والسكون ٣٠٣/٤

(٥) شر الحسد : حـ ٦١٦/٨ من ديوان شكرى الجامع

ويتعلق بصوت الله رجاؤه ، ويتخذ منه منارا لهدايته . وإنه ليلبيه ، ويناجيه :

يا هاتفا فى جنح ليل بهيم   لبيك فالقلب كعبد أسير
أنت رجاء النفس فى أسرها   تضىء فى العيش ظلام الأمور
وأنت صحو الروح فى بحثها   من نشوة الفكر وسكر الغرور

ثم يقترب منه « أن كرث الخطب وعم البلاء » ويرى عبادته وباب جنته لمن يروض نفسه بالعمل ، والمعاناة لوقع الخطوب ، وبالأسى فى العيش ، والندم :

يعبدك الناس بأعمالهم   وما يعانون لوقع الخطوب
وبالأسى فى عيشهم والندم   عبادة الندب الجليد المصيب
طوبى لمن روض من نفسه   فان صوت الله منه قريب

وهذه مقطوعة (الحزن والسرور) يروض فيها نفسه — وهو فى سن مبكرة — على الرضا بالمقدور — أحزنه هذا المقدور أم سره — ويعتد الحزن والسرور كليهما غذاء لفؤاده طول الحياة :

إنما الحزن والسرور غذاء   لفؤاد الانسان طول الحياة
فإذا طاح بالسرور قضاء   فارض بالحزن قبل ألا يؤاتى

وهذه مقطوعته (صبر فى الأمل وصبر فى اليأس) يتدرب فيها — وهومايزال فى سن الشباب — على الصبر الذى يكبح جماح شهوته وغلو نفسه فى حالى الطموح واليأس على سواء :

طموح ويأس لايرى المرء فيهما   سوى الصبر خاقا كابحا من جموحه
فصبر يعين المرء فى حين يأسه   وصبر يعين المرء عند طموحه

وهذه منظومته (وعظ القدر) يقدم لنا فيها عظة عاقلة ، يبدؤها بالإقرار بما

للقدر من فرائض ، فعلينا أن نعينه على أداء فرائضه ، وأن نحسن — عن قدرة لا عن عجز — الاستماع إلى ما تمليه الأحداث ، لعل صوتها ينبه من غفلة ، ويبعث على النشاط من كسل ، ويزع الأخرق عن خرقه ، وإن لها لصوتا يضج ضجيج الرعود ، ويخطف خطف البروق ، وفى كليهما نذير قوى ، وعلى العاقل أن يعين الأحداث على أن تؤدى مهمها ، ويعين المقادير على نجح مسعاها :

على الدهر والدنيا على العيش والردى فرائض لا تبلى ولا تتحول
فقم واستمع خطو الحوادث بيننا فكل ضعيف عاجز ليس يسمع
لعل لها صوتا ينبه غافلا فينشط مكسال ويفهم أخرق
أما فى رعود الحادثات مواعظ أما فى بروق للمقادير زاجر
فقم عاون الأحداث فى وصف سيرها وألهب بسوط الجد خيل المقادر

ثم يشير إلى زهادته ، وأنه إذا رضيت نفسه عن حال رغيدة فقد خان آماله وخان عقيدته :

إذا رضيت نفسى بحال رغيدة فقد خنت آمالى وخنت عقيدتى

وهذه قصيدته (بحر الحسد) — وإن شئت بحر الحياة الذى يسبح فيه الأحياء ويسمون فيه لأرزاقهم وجاههم بالكيد والمكر — يدعونا الشاعر إلى سباحة هذا البحر ، ورياضة أنفسنا على إذلاله وقهره ؛ بالجلد والمقاومة ، والسخرية مما يغولنا منه والثقة فى النصر عليه :

انظر الأمواج فى الشط تجد لجها منهزم الأمر بدد
إن علت موجة حقد فاصطبر أى موج فى ذرا اليم خلد

ويدعونا أيضا إلى الأخذ بأيدى إخواننا الذين انحدروا إلى درك الحياة ، ومعاونتهم على رؤية مرفأ النجاة رؤية واضحة :

أنجـد السابح إن حار ، وكن للذى أشفى على الهلك عضد

فاذا هزمنا الحسد هزمنا الشر ، وهزمنا روح الشيطان الذى يوسوس به ، وأنقذنا البشرية من هلاك محقق ، حتى إذا حانت النومة الأبدية طبنا بها ؛ اطمئناناً إلى سابق بلائنا ، وإلى أدائنا الأمانة :

لا يلذ المـوت إلا متعب سهر العيش وفى الموت رقد
رقـدة يا طيبها من رقـدة بعـد أن عانى وأبلى وسهـد

هذا ، وقد اختار « شكرى » من الشعر الإنجليزى قصيدة (IF) للشاعر الإنجليزى « ردیارد کبلنج » (Rudyard Kipliug) ، وهى من عيون قصائده ، ووضعها « شكرى » فى قالب من الشعر العربى ، تحت عنوان (الخلق العظيم) ، والذى يهمنا هنا أن نشير إلى أنه اختار قصيدة مليئة بمكارم الأخلاق ، فهى تحث على أن تكون : رزيناً ، حليما ، قوى الإيمان غير شاك ، صبوراً غير جازع عاذراً غيرك عن فهم ، صريحا فى معاملة خصومك ، متسامحا لا تضطغن لأضغان الناس . متواضعاً لا تتخايل بالجاه أو الفهم ، حسن التقدير لا تقع عبداً للأمانى ، رصيناً فى فكرك وعملك ، رياضياً ، لا يطغيك الفوز ، ولا تنال منك الهزيمة ، عاقلا وسط الحمق ، ناشداً الخير عمرك ، جاداً فى حياتك ، ذا أمل لا تدع لليأس سبيله إلى نفسك ، راضياً لا تشكو ، ذا عزيمة ، حافظاً قدرك ؛ فلا تهبط بمخالطة السواد ، ولا تستعلى بمخالطة المترفين ، عادلا فى صلاتك بأصدقائك وأعدائك ، تقـدر أمورك قدراً موضوعياً ، لك رسالة فى العيش (١) :

يقول « شكرى » :

إذا طار لب النـاس فى مدلهمة ولم يهتدوا فيها إلى النصف والحكم(٢)

---

(١) نشرناها فى (لحق ديوان عبد الرحمن شكرى) الذى جمعنا فيه مالم يضمه الديوان الجامع من شعره .
(٢) النصف (بكسر فسكون) هو النصف والنصفة (بفتحات) أى العدل

ولاموك بغياً منهم فى مصابهم ... فلم تبد إلا بالرصانة والحلم
وقد ند عنك الناس شكا وظنة ... ونفسك لم تخذل من الشك والهم
وأنت على ما قد جنوا غير جازع ... وتعذرهم عذر الفهيم من الفهم
وأبديت صبراً ، لا اصطبار مضعضع ... ولكنما صبر الكريم على السجم[١]
وقد أمك الأعداء بالمين والأذى ... فألفيت أن الصدق أليق بالقرم[٢]
ولم تضطغن حقداً على كل حاقد ... وإن نال منك الناس بالضغن والشتم
ولم تشتمل بالخير ثوباً ومفخراً ... ولم تتخايل بالفطانة والفهم
إذا نلت من حلم الأمانى وادعاً ... ولم تك عبداً للأمانى والحلم
إذا الرأى لم تعدده إلا وسيلة ... ولم تخط بعد الرأى إلا إلى العزم
وقمت به ما بين نجح وخيبة ... رصينا على الحالين فى الغرم والغنم
فلا غرك الفوز الذى أنت فائز ... ولا نال منك الخطب بالسقم والهم
إذا أنت لم يحزنك حتى بسطته ... فغر بك النوكى ، وأسعد ذو اللؤم[٣]
إذا ما قضيت العمر فى خير مطلب ... يراد ، فلم يسلم من الصدم والهدم
فعالجته بالجد حتى أقمته ... وإن كنت مكدود الفؤاد من الرم
إذا أنت قد خاطرت بالذخر واللها ... فبادت ، فلم تسكن إلى اليأس والغم[٤]
وعاودت مسعى الرزق من حيث مابدا ... ولم تنك من طول الطلاب ومن غرم
إذا اسطعت بعد الجهد جهداً ولم تجد ... على الجهد خذلاناً من القلب والجسم
ولم يبق منك السعى ما كان من قوى ... سوى العزم يغرى القلب والجسم بالجشم[٥]
إذا أنت خالطت السواد من الورى ... ولم تتخلق بالنقيصة والاثم

---

(١) السجم : سيلان الدمع — (٢) القرم : السيد
(٣) النوكى : الحمقى
(٤) الذخر : ماذخر وادخر . واللها جمع لهوة (مثال غرف وغرفة) واللهوة العطية من أى نوع
(٥) الجشم . تكلف الأمر على مشقة

وإن أنت خالطت الملوك من الورى ... ولم تنس ما للناس من صلة الرحم
إذا كنت لا يضنيك خل ولا عدا ... وتقدر كل الناس بالقصد والفهم
إذا ما ملأت العيش سعياً ومطلباً ... وكم ضيع الأيام من وكل فدم(١)
فطوبى لك الأرض البسيطة كلها ... وما كان فوق الأرض من مغنم جم
وطوبى . فأنت المرء لا مرء مثله ... (بنى) . وذا خير من الفوز والغنم

اختار « شكرى » هذه القصيدة ، واختيار الرجل قطعة من عقله ؛ فأعطانا بهذا دليلا آخر على جانب من صفاء حسه ، ونقاء نفسه .

(١) الوكل (بفتحتين) العاجز . والفدم الغليظ الأحمق والعيى عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم

الفصل الخامس

المجتمع الأمثل

نقل التاريخ لنا — منذ وضع « أفلاطون » جمهوريته أو مدينته الفاضلة — عدة أنماذج لأحلام الفلاسفة ، والعلماء ، والأدباء ، فى كل عصر ، وجيل ، ومجتمع ، فيما ينبغى أن تكون عليه الهيئة الاجتماعية ، ونحن لا نعفى أى إنسان من أن يتصور أنموذجه ، لأن لكل منا حياتين ، حياة واقعه ، وحياة خياله ، فهو فى واقعه يتأثر بوسطه زمانا ومكانا ، أى يتأثر بالكائن الناقص ، أما فى خياله فانه يطمح إلى الكمال وفقا لرغائبه(١) . ولقد يرفض خياله واقعه كله أو بعضه ، فاذا رفضه كله فانما لينشىء نظاما جديدا للهيئة الاجتماعية ، وإذا رفض بعضه فانما يريد تحسين واقعه وتكميله :

ومن الفلاسفة والأدباء من يكتفى باضاءة طريقه إلى أنموذج خياله ؛ بحثا عن السعادة الموصلة إلى المجتمع المنشود . وهنا لا ينظر الفيلسوف أو الأديب إلى ذاته أو إلى الأفراد ، وإنما يكون همه المجموع . وعلى هذا النحو نجد « شكرى » فقد أولع بهذه السعادة التى وصفنا ، وأدرك من أول الامر أنها ليست سهلة التناول(٢) :

إن السعادة لم تسلس لطالبها ... كربة الدير لا تحنو على رجل

كلتاهما عفة الأذيال طاهرة ... لكن فى المنع مزجاة إلى الأمل

ومن هذا الحرمان نبعت حركته نحوها ، « وحب شىء إلى الانسان ما منع » ، فهو يركب من أجلها الأخطار فى حرص عليها ، وعلى كشف مغاليق الكون والحياة الطبيعية ، وإنه ليستشعر لذة فيما قد يصيبه فى أثناء بحثه ، وإلى ذلك يشير فى قصيدته :

---

(١) سلامه موسى : أحلام الفلاسفة ص ٧ وما بعدها

(٢) السعادة : حـ ١٨٩/٢ من ديوان شكرى الجامع

إلى (المجهول[١]) ، مخاطبه .

وأكبر الظن أنى هالك أبداً ، شوقاً إليك ، وقلبى فيه ما فيه
من حسرة وإباء لست أملكه يأبى لى العيش لم تدرك معانيه
وأنت فى الكون من قاص ومقترب قد استوى فيك قاصيه ودانيه

ولكنه يثبت لذلك المجهول ، ويدل قومه على أن الولوع بالمجهول أدى إلى سيطرة الأمم القوية ، وتمتعها بالثروة ، والسطوة ، والعلم ، والحضارة . فينبغى أن يتهيأ لقومه أسلوب من التربية ؛ يوجه ما فى ناشئتهم من ميل فطرى نحو حب استطلاع المجهول ، وكشف مغاليقه .

ليس الطموح إلى المجهول من سفه ولا السمو إلى حق بمكروه
إن لم أنل منه ما أروى الغليل به قد يحمد المرء ماء ليس يرويه
والقانعون بما قد دان عيشهم موت فإن خضوع اللب يرديه
يا قلب يهنيك نبض كله حرق إلى الغرائب مما عز ساميه
كم ليلة بتها ولهان ذا أمل لم يسل قلبى أن غابت أمانيه
لعل خاطر فكر طارق عرضاً يدنو بما أنا طول العمر أبغيه
يوضح الغامض المستور عن فطن وافهم العيش تستهوى بواديه

وإذا كانت كل حركة لهدف فإن هدف « شكرى » يكاد ينحصر فى قيام مجتمع يسوده : العقل، والطهر ،والكمال ، والحرية ، والاخاء ، والمساواة ، والعدل ، والسلام ، وشريعة الله .

---

(١) إلى المجهول : ﺣ ٥/٣٩٦ من ديوان شكرى الجامع . ونشرت فى المقطم ١٩٣٦/٨/٧ وفى الرسالة ١٩٣٨/٥/٢

ففي قصيدته (قاب الآمل)(١) — يأمل أن يتحول الخراب جنة ، وأن تبلغ النفوس مداها من الحجى ، وأن ينزع الورى قسوة السوء والخنا ، وأن تطهر النفوس من الشر والأذى ، وأن يبتغى الناس عالما جديدا :

ضاق قلبي بما يجن ونفسى بما تشا
فمتى يصبح الخراب جنانا ؛ كما مضى
ومتى تبلغ النفوس مداها من الحجى
ومتى ينزع الورى قسوة السوء والخنا
ومتى ينجلى الظلام عن الفجر والضحا
ومتى تطهر النفوس من الشر والأذى
تبتغى عالما جديدا ، من الكون قد نشا
خارجا منه ؛ مثلما تخرج الليلة الضحا

وفى قصيدته (العصر الذهبى)(٢) — يشير إلى ولوع الناس من قديم الزمان بالتفكير فى عصر الإنسانية السعيد : « عصر الخير العميم الشامل » ؛ فمنهم من كان ينشده فى الماضى ويبكى انقضاءه :

عصر السلام ؛ تحية وسلام — خلعت عليك رجاءها الأقوام
من كل عصر فى نسيجك لحمة — ألأجل صنعك تدلف الأعوام
خالوك فى الماضى ولم تك ماضيا — إذ زان منه البعد والأوهام
ويرون فى غدهم سرابا ناميا — فيطول نحس العيش والإجرام

وفيهم من ينشده فى المقبل من العصور يدنيه الرقى والحضارة ؛ وهم لو عقلوا

(١) حـ ٤/٣٥٤ من الديوان الجامع
(٢) حـ ٨/٥٧٤ من الديوان الجامع

لوجدوه فى نفوسهم حاضراً ؛ وبمشيئتهم مرتبطا ؛ وبحركتهم نحوه متعلقا ـ « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » :

استبطأوك وأنت بين جنوبهم وتنظروك ودأبك الإلمام
ورأوك فى الدهر البعيد وما دروا أن لو أرادوا كان منك لمام
لرأوا مشيئتهم تشاء ولا تشا هاموا وتحسب أنهم ما هاموا
ولأنت فى سير النفوس إذا صفت يدنى اليك البر والإكرام

ثم يشير الشاعر إلى أقوام اتخذوا شعاره أداة للفوز بأطماعهم ، وللحرب ، وللطغيان ، وللثراء :

كم فتنة أججت نار جحيمها شوقا لعهدك والأنام حطام
وشعار حق كم غدا أحبولة أثرى بحتمك فى الأنام لئام

وهؤلاء أقوام عافوا المسالك الصحيحة ، وتنكبوا الطرائق المستقيمة ، فطاشت حلومهم ، والتوت بهم مقاصدهم :

لو أنهم ملكوا لعافوا مسلكا يدنى إليك وطاشت الأحلام

وهذه المسالك الصحيحة والطرائق المستقيمة فيما جاءت به شريعة السماء ، وفيما تداعت له ثورة الفرنسيس :

ولطالما حن اليهود لشرعة ودعا المسيح له وريم سلام
وتنظر « المهدى » قوم أملوا ركبا له يحنو به الإسلام
ثار الفرنس ، وخيرهم يبغى له عهدا تدين لشرعه الأحكام

وبعد أن يصف الشاعر حاضر عصره ، وما عليه الناس من تقاتل وتصارع ، ويعريهم من النقاء والصفاء ، ويكشف عما انحدرت إليه صفاتهم وطباعهم وأحوالهم ، ويفتقد عصر الإنسانية السعيد ، حتى يصبح بعيد المنال ، ويصبح

مع هذا ـ المثل العالى الذى لاتحلو الحياة إلا به . بعد هذا كله يرتد الشاعر إلى فكرة انهزامية مضمونها : (إذا صدق بعض المفكرين أن تحقق « العصر الذهبى » نذير بالفناء فرحبا بالفناء يكون نذيره الخير والسعادة والمثل العالى ، وقد لا يصدق ذلك الزعم) :

أهــلا بغائلة الفناء ، نذيرها عهــد يشوق سلامه وتمام
إن لم يصح العيش إلا أن ترى شرع التنافس فى الأنام يقام
فعسى التنافس فى المحامد ينثنى طبعا ، وإن قيل : الأنام لئام

وفى قصيدة (الشباب)[1] ـ ينيط الشاعر مستقبل الإنسانية بالشباب وهم زينة الحياة الدنيا ، ويرتهن مستقبلها بطموحهم إلى المثل العليا ، وبقوة عزيمتهم ، وبصدق كفاحهم وجهادهم وجلادتهم ، وبما يأخذون به أنفسهم من روح المغامرة والمصاولة ، والسعى نحو بعيد الغايات ، ومن شأنهم إباء الضيم وقهر اليأس ، ومواجهة الصعب :

إن الشباب حــديقة الأزمان عطر الروائح ناصع الألوان
روح من الفردوس يشمل نشره تغدو الحياة به رياض جنان
لا اليأس يضنيه ، ولا جزع ، إذا كثر العثار وزلت القدمان
وهو المغامر فى الحيــاة بنفسه نشوان لا من خمرة النشوان
يسمو إلى الغرض البعيد طموحه ويرد خطب الدهر بالإيمان
أطماعــه علوية ، أحلامه ذهبية الآمال كالعقيــان

ويفزع الشاعر مما يسود المجتمع من المظالم ، ومن طغيان الطغاة ، وما يصطنعونه ـ وصولا إلى أهدافهم ـ من حرص وقسوة ورقة وفتكات :

والآن عالجت الحياة كما أرى لا ما أريد من البعيد الدانى

---

(١) حـ٨ ـ ص٥٧٨ من الديوان الجامع

وعددت من سنن الحياة وحكمها ما يفعل الإنسان بالإنسان
فى حرصه ، أو قسوه ، أورقه من فتكة بالروح والأبدان
وفزعت من ظلم الحياة . وطالما ذلت منهـــا أيما طغيان

ويؤمل الشاعر أن يبلغ الشباب بعزماتهم وأمانيهم ومساعيهم مانذروا أنفسهم له من جليل الأمر ، وأن يستنقذوا الدهر من عبث العابثين الذين جعلوا الحياة مهزلة رخيصة ، وأن يقهروا الطاغوت والجبروت ، ويحيلوا ظلم العيش عدلا سائغا :

فعسى الشباب بمقبل من دهره يبلو الحياة بعزمة وأمانى
ويسن للدنيا الوسيعة سنة لاسنة للحرص والحرمان
يستنقذ الأزمان من عبث الورى ويطهر الأحشاء من أضغان
ويذل طاغوت الأمور ، فيحتذى شرع الحياة شريعة الرحمان
ويحيل ظلم العيش عدلا سائغاً ينسى به ما كان من عدوان

ولعلك تلحظ — فى البيت الرابع — أن شريعة الله منظورة للاحتذاء ، ولكن حركة الإبداع فى نفس الشاعر — وهى حركة تتطلب الكمال — جعلته يجرى فى البيت تعديلا يفرض السيادة للشريعة ، فرواه هكذا :

ويذل طاغوت الأمور ، فتغتذى شرع الحياة شريعة الرحمان[1]

وليس من شك فى أن شريعة الله هى أعلى المثل وأسماها وأرشدها ، وأولى للمصلحين أن يجعلوا مسعاهم للوصول إليها وتحقيق السيادة لها من أن يضعوها مناطا للاحتذاء والنقل والاسترشاد .

ويدرك «شكرى» أن الحركة نحو المجتمع الأمثل لا تتأدى - إلا إذا أزجاها الأمل ، فيناجيه ، ويرى فيه بلسم أحزانه ، وحادى ركبه ، وغنى نفسه ، ورحمة من ربه ،

(١) راجع مقالة شكرى (التفاؤل والتشاؤم أيضا) فى الرسالة — عدد ١٩٣٩/٥/٨ .

ومظهر إيمانه ، وخلقه المكين ، وعزمه : وهمته ، ومنقذ حيرته ، وآسى شقوته[1] :

أيا بهجة العمران لولاك لم يكن ... فلا شيد البانى ولا كد كادح
أيا بلسم الأحزان لولاك لم يعش ... على عنت البلوى لهيف ونائح
ويا حادى الركبان فى العيش مثلما ... حدا الركب فى الصحراء حادو صادح
ويا رحمة الله التى عمت الورى ... ولم يخل منها جارم النفس جامح
وإن غنى النفس من أنت ذخره ... وأى غنى يغنى وضوؤك نازح
وكم من غريق أسقط الجهد كفه ... فما لحت إلا وهو فى اليم سابح
ورب حبيس أنزل السجن ظلمة ... عليه ونور منك فى السجن لائح
ويا آسى الأحزان والظلم والضنى ... ولولاك أعيا الطب مود وطائح
تخلل أنات الشقاء ونوحه ... فتعذب فى الأسماع حتى المنائح
تعللنا بالسعد من بعد ميتة ... فتحسن فى مرآك حتى الضرائح

ومما يحمد للشاعر أنه لايذهب بعيداً وراء (طائر السعادة) ؛ لأنه يجده واقعا فى داخل نفسه ، يلبح له بالصبر ، والعزم ، والفطرة ، والحكمة ، والرأى (٢).

ومن لم يجد فى نفسه ذخر عيشه ... فليس له بين الأنام نصير
وهل يستقيم السعد للمرء فى الدنى ... ومطلبه بين الضلوع سعير
وليس شقاء المرء فيما يصيبه ... ولكنه طبع له وضمير
بدا لى أن لاسعد إلا تصبر ... تقر به فى النائبات صدور
وعزم وإيمان وطبع وحكمة ... ورأى بآلاء الحياة خبير

ولا يذهب بعيدا وراء أمل الإنسانية، لأنه يجد فى فجر كل نهار رمزا له، ووعدا به، فهو يتعلل بهذا الرمز ، وينتظر انجاز الوعد ، كما قال فى ختام قصيدته(نحو الفجر)(٣)

---

(١) مناجاة الأمل : حـ٨ — ص٥٨٤ من ديوان شكرى الجامع . ونشرت فى ديوان الاسكندرية بعنوان (الأمل) .

(٢) طائر السعادة : جـ٦ ص٤٥٥ من ديوان شكرى الجامع

(٣) جـ٨ ص ٥٨١ من ديوان شكرى الجامع

وأملت للدنيا صباحا مؤجلا سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر
فكل صباح رمزه ومثاله ووعد به يحدو إلى الزمن النضر
نسر بنعماه وإن لم تكن لنا وننشده فيما يكون من الدهر

ومن قبل ذلك فى القصيدة نفسها اتخذ من أرقه وسبحات فكره فيه رمزاً لحركة الحياة نحو الفجر المرتقب : أمل الإنسانية المنشود ، مؤملا أن ينام الناس نومة تذهلهم عن كل شر ، ويستيقظوا منها على عهد جديد ، يستأنفون فيه حياة طاهرة :

ألا ليت نسيانا كذا النوم ساقيا يدير لهم كأسا ألذ من الخمر
لتذهلهم عن كل شر وفتنة فيستيقظ النوام فى خلق الطهر

وأحيانا يشده الواقع إليه ، فهو ينظر فى قصيدته (ذى الفكرة الواحدة)[1] ، الحضارة الراهنة ، فيشاهد أرضا خصبة ، ومدائن ، وقصورا ، ومزارع ، ومعامل ، ويرى الثروات فرصا لكل مدبر ومفكر ، ولكل مغامر لا يأتلى ولا يقصر ، ولكل ذى سعى حصيف ، ويبصر الفقراء يزدادون عددا ، ويزدادون جوعاً ، فيبصر فى جوعهم جناية الأغنياء ، فيدق ناقوس الخطر ، وينشد ويكرر النشيد :

(جوع الفقير جناية المتمول) وهذه هى كلماته :

انظر إلى أثر الحضارة . إنها
سحر الخصوبة فى اليباب الممحل
جوع الفقير جناية المتمول[2]

* * *

والأرض بالعمران تزخر مثلما

---

(١) من القصائد التى لم يضمها ديوان الجامع . ونشرناها فى لحق ديوان عبد الرحمن شكرى.
(٢) المتمول : الكثير المال

زخر العباب بمـــائه المتسلسل
جوع الفقير جنـــاية المتمول

* * *

وترى المدائن والقصور كأنها
للخلد ليس لها الردى بموجل(١)
جوع الفقير جناية المتمـــول

* * *

جعل المموِّل للسواد من الورى
رزقاً لهم فى الأرض أو فى المعمل
جوع الفقير جنـــاية المتمول

* * *

فرص لكل مدبر ومفـــكر
كثر ، وكل مغـــامر لايأتلى(٢)
جوع الفقير جنـــاية المتمول

* * *

إن خاب ذو سعى حصيف كم فتى
لسعى أثرى بعـــد فقر أول
جوع الفقير جنـــاية المتمول

* * *

حتم على العدد الكثير الفقر . لا
يرجى الثراء لكل من لم يكسل

---

(١) موجل: اسم فاعل من وجل كخوف ـ بالتشديد ـ وزنا ومعنى .

(٢) لايأتلى : يقصد به أنه لايقصر . ويجوز أن يقصد أنه لايحلف من الألية وهى الحلف ، ذلك لأنه ذو عزم وحركة. فهو غير محتاج إلى أن يؤكد عزمه وحركته بالحلف والقسم .

جوع الفقير جنـــاية المتمول

* * *

والفقر لولا حفزه ركد الورى

إن لم تخف غول المهالك تهمل

جوع الفقـــير جناية المتمول

ومن قبل - فى سنة ١٩١٣م - تنبأ فى قصيدته (العقاب بالقتل)(١) ، أن تثور حرب اقتصادية بين المعدمين والأغنياء ، ينظم فيها المعدمون صفوفهم ، ويوسعون الأغنياء انتقاما ، طالما شح هؤلاء ، وأحجموا عن الاسهام فى ترقية المجتمع ،وسدروا فى غوايتهم :

فقل للألى أذوى النعيم قلوبهم ... أعينوا أولى الحاجات فالفقر كافر

كأنـــكم بالضامرين تعارفوا ... على نية ســـوداء ، والجوع آمر

هنالك إنى للفقـــير لعاذل ... وإنى له مما يعانيـــه عاذر

(١) حـ٢ ص ١٣٤ من ديوان شكرى الجامع .

الفصل السادس

المثل العليا

(١) الحق :

في قصيدة (الباحث الأزلي)(١) ، أعمل « شكري » خياله في تصور إنسان يعيش الدهر كله ؛ بحثا عن الحق . هذا الإنسان لم يترك مظنة ، أو زمنا ، أو وسيلة ، في سبيل البحث عن الحق مؤملا أن يعم الشعور بوحدة الإنسانية ، على اختلاف الأجناس ، والشعوب ، والمطامع ، والضرورات ، والمطالب ، والنزعات الإنسانية ، ومن بعد ذلك أن تتعاون الإنسانية على الحياة ، وأن تنبذ التقاتل عليها ، وأسبابه من حروب وبغضاء . يقول « شكري » على لسان هذا الإنسان :

عشت دهري بالبحث والأمل الحلو ولولاه لم أفز بالنجاء
من سهام المنون . إن سهام الموت فينا كثيرة الإصماء
همت يوما من قريتي أنشد الحق ، لعلي أراه في الدهماء
عفت بيتي وبلدتي وهجرت الأهل أبغي ري النفوس الظماء

وجعل يفتش عن الحق بالفكر والبحث والنظر ، فرعى من أجله الظلام ، وجزع الصحراء ، وغاص في العباب ، وأثار الأصداء ، وسائل الرياح ، وأطال النظر في السماء ، وفي الفضاء ، والناس تزعم به الجنون ، وتتهمه بالغفلة ، وهو لا يبالي ، لأنه واثق من لقيا الحق :

---

(١) الباحث الأزلي : جـ ٤ . ص ٢٩٢ من ديوان شكري الجامع . وعنوانها في الطبعة الأولى : (الباحث الأزلي — أو — الشيخ المجنون) . انظر ديوانه (زهر الربيع) . وعنوانها (الباحث) في الرسالة : ١٨/٤/١٩٣٨ .

زعم الناس بى الجنون ، وخالوا طالب الحق أخرق الأحياء
كلما لاح شامخ قلت : إن الحق يغدو من خلفه يازائى

وأخذ يحدو الحق فى كل مجتمع ، فصحب « نوحا » فى سفينته ، ليرى نجاة الحق بعد الطوفان ، وحضر مجلس الحكم فى « نينوى » عاصمة الأشوريين ؛ ليكشف عن مدى عدالة أحكامهم ، وانضم إلى جيش « فرعون » ؛ ليساعده على الثبات فى معاركه ، وتقمص شخصية « آمون » وهو الكبش الذى عبده الفراعنة ، واتخذوه رمز للشمس فى مدينة « طيبة » (الأقصر الحالية)(١)، وألهم الفلاسفة فى « أثينا » قول الحكمة ، وبارك أعمال الدولة الرومانية ، وسار فى ركب سيدنا « عيسى » وهو ينشر السلام ، ووقف إلى جانب الفرس عبدة النيران ، حتى جاء الإسلام فرفع الإسلام من شأنه وسما به .

ثم يتحدث الشيخ عما لقيه من نعيم وبؤس ، وعمن لقيهم من الناعمين والبائسين ، فيقول : إنه لم يدع كأس لذة أو شقاء إلا حساها ، وإن « هيلين » أجمل نساء الإغريق التى كانت سبباً فى خراب « طروادة » — قد منحته قبلة ود ، وإن « سيفو » شاعرة الإغريق الغزلة الجميلة(٢) — قد أسكرته ، وإن « ليلى » — من حبائب العرب — قد نفحته مسكها ، وإن « شيرين » — من حسناوات الفرس — قد حبته أنعما جمة ، وإنه صحب العبيد فى شقائهم ، وأحس آلامهم ، وصاحب الوحوش فى البيد حتى أنست به ، وأراق الدماء فى الحروب ، حتى جن منها جنونا ، ولم يدع « خطرة أتيحت ، ولا معنى ، ولا فكرة من الآراء ، أو شعورا ، أو هاجسا ، أو طموحا أو مشهداً :

---

(١) للاستزادة : راجع الفصل الثالث من كتاب (مصر) ترجمة عباس بيومى . مطبعة مصر بالقاهرة سنة ١٩٤٧ .

(٢) للاستزادة: راجع كتاب (سافو — شاعرة الحب والجمال عند اليونان) لعبد الغفار مكاوى — دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٦ .

وحسوت النعيم والبؤس حتى لم أدع كأس لذة أو شقاء
واجتباني من النساء حسان قد علا ذكرهن شأو النساء(١)
منحتني هيلين قبلة ود وسقتني سيفو كئوس الطلاء
ورمتني لبلى بحقة مسك وحبتني شيرين بالآلاء
وصحبت العبيد في ظلمات الـ ـعيش حتى جننت بالضراء... الخ

والعبرة من هذه القصيدة — إضافة إلى نشدان الحق — في رعاية الأفراد للحق؛ كفاية للحياة . وقد شهدناه في تصرفاتهم وسلوكهم ، وإن اختلفت مظاهره ، وفي رعاية المجتمعات له أيضاً ، وقد شهدناه في أعمال القوم ، وإن تفاوتت دوافعهم .

ويعترف « شكري » بأنه نظر إلى فكرة اليهودي التائه المحروم من الموت عقابا، وهو ينشد هذه القصيدة ، وأنه تأثر فيها مذهب « جوته » في تقديس البحث ، واتجاه « شالي » إلى الطموح للمثل العليا(٢) :

و « شكري » يرى أن حركة الحق في النفس حركة تلقائية ، ويشبهه بالجنين إذا اكتمل نموه فلابد من أن يخرج حتى لا يقضي على الحامل ، فلا ينبغي أن تتدخل إرادتنا لكتم الحق أو إخفائه ، وإلا قضى على كاتمه كما يقضي الداء على المصاب به، أو دفع كاتمه إلى التخلص من حياته بالانتحار، أو أسلمه للقشاء(٣) :

الحق حمل يؤود النفس محمله إذا مضيت بشلو منه مقبور
إذا كتمت فداء لا دواء له بل طبه حين يبدو غير مستور
لا تكتم النفس حقاً أبصرت أبداً فللأجنة حد في المقادير
إن كتمته على رغم لذلتها عاشت بحال بغيض العيش مصدور

---

(١) هذا البيت والبيتان بعده في الطبعة الأولى ، وحذفت عند إعادة نشر القصيدة في الرسالة ، ولعل ناشر الديوان الجامع نظر إلى نص الرسالة لحذف الأبيات الثلاثة .
(٢) شكري : الشعر والثقافة — المقتطف : يوليو ١٩٣٩ .
(٣) الحق المكتوم : جـ٥ ص٤١٠ .

والحر إن لم يطق إرسال فكرته ... راع الأنام بدامى الصدر منحور
قد حدثت نفسه «عيسى» بقتلتها ... وكاد «أحمد» يقضى غير مذكور

ويفسر «شكرى» هذا البيت بأنه إشارة إلى حادث فى حياة كل من سيدنا عيسى وسيدنا محمد — عليهما الصلاة والسلام — «إذ اشتد بهما لجاج الحق، فكاد يدفعهما إلى الانتحار».

ولعل «شكرى» يقصد ما عاناه «عيسى» من المشقة والجهد فى هداية اليهود، وجلاء وجه الحق لهم، وهم يقابلون جهده بالعنت والعناد، وبلغوا بهما حد إصرارهم على قتله وصلبه والتنكيل بحوارييه، حتى تنصل عدد من هؤلاء الحواريين من علاقتهم بعيسى، اتقاء للتنكيل. وأما «محمد» فقد جهد فى نصح قومه من أهل مكة جهداً مبالغاً فيه، وكلما بدا منه حرص على هدايتهم وإسلامهم بدا منهم الجحود والنكران والكفر، واستكبروا، وأمعنوا فى سفههم وضلالهم، فأغروا به غلمانهم ونساءهم، والنبى مستمر فى جهده ونصحه، لا يبالى ما يلقى منهم؛ أملا فى أن يهتدوا وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى: «فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا»(١)، وقوله: «لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين(٢)».

وما نحسب الأمر انتحاراً كما توهم «شكرى»، وإنما هو جهد الحريص، عبر عنه القرآن الكريم بالبخع مبالغة، كما أن إيراده فى كلتا الآيتين خبر «لعل» — وهى للتوقع — والتوقع يكون فى الإشفاق من المكروه ويكون فى ترجى المحبوب — يعطينا تفسيراً للآيتين: (أنت تبذل من الجهد فى دعوتهم إلى الإسلام قدراً، تشفق منه أن يؤذيك هذا الجهد)، وسياق الآيتين فى مكانيهما يساعدنا على ذلك. والله أعلم.

---

(١) سورة الكهف — الآية ٦.

(٢) سورة الشعراء — الآية ٣.

وعند « شكرى » أن الحق يخفى إذا وضع فى موضع المساومة ، أو اتخذ وسيلة للنفع(١)، وغير مقبول لديه مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) ، لأن القول به معناه انهيار الديانات ، وتفكك عرا الفضائل ، وانحلال قيود النفس(٢) :

فإن من جعل الغايات واسطة أو الوسائل غايات من الأمل(٣)
لم يستقم سعيه من حيث يممه وعاقه جهله عن دقة الحيل

والحرية عند « شكرى » — كمظهر من مظاهر الحق — ليست بيضاء ناعمة ، وإنما هى حمراء ظمآنة إلى الدماء ، تحل ما حرم منها ، وهى مع قسوتها حبيبة إلى عشاقها ، لأنها تزيح النقاب عن حقهم فى الحياة الكريمة ، وهذا هو يخاطبها(٤) :

حسبوك صافية الجبين خريدة تسبى القلوب بأكحل وسنان
بيضاء ناعمة كأن قوامها فى لينه غصن من الأغصان
هلا رأوك وأنت بين معاشر وضعوا السيوف مواضع التيجان
ظمأى إلى الدم قد أبحت حرامه كالذئب يعوى بادى الأسنان
لا يبلغ المقهور منك نصيبه حتى يضرج بالنجيع القانى ...الخ

و « شكرى » إعجاباً منه بالحرية يتعقبها فى التاريخ القديم ، فينقل شعراً قصة (أم إسبرطية قتلت ابنها)(٥) ، لفراره من الحرب ، ونكوصه عن الدفاع عن وطنه ، وليست الحكاية هى التى شدت انتباهنا إلى القصيدة ، وإنما تعليق الأم على فعلتها بابنها ، بأنها قتلته ، إبقاء على أمتها ، والموت فداء للأمة جدير بالأحرار ، فإذا كانت قد أجرمت ففى جرمها شرف لها ، لأنها أنقذت أمتها من عار ابنها :

---

(١) اختفاء الحق : حـ٦ — ص٤٧٩ من ديوان شكرى الجامع .
(٢) شكرى : المغالطة فى الوسائل والغايات — الرسالة : ١٩٣٦/٦/٨ .
(٣) الوسائل والغايات : حـ٢ ص ١٩٢ من ديوان شكرى الجامع .
(٤) الحرية : حـ٢ — ص١٦٦ من ديوان شكرى الجامع .
(٥) جـ٢ ص ١٧٦ من ديوان شكرى الجامع ، ونشرت فى الجريدة ١٩١٠/٧/٢٨

مت فداء لأمة أنت منها كل حر بالموت فيها جدير
رب موت أبقى على الدهر ذكرا رب عيش للشائنات جليب(١)
أيها الخائن الجبان خشيت الـــموت والموت حادث مقدور
إن أماً تعزى لها قتلت فى قتلك العار لم يصبها معيب

ومرة أخرى ينقل « شكرى » قصة (إيكاروس)(٢) ، العبد الرومانى ، الذى شهد الظلم بين قومه أمراً سائغاً وحقاً مشروعاً ، فثار على هذا الوضع ، وانتقم للحرية من سيده الظالم ، وقدم حياته قرباناً لثورته ، إذ اقتص منه أنصار هذا الظالم ، ولكن بعد أن أعطاهم درساً فى الحرية ، وأبان لهم عن ذلة نفوسهم ، ورضاهم بالدنية ، وإيثارهم الجبن ، وإساغتهم الهوان ، وتمرسهم بالخوف :

ولو خوف الإنسان من شر عيره لما قاد ذاك العير منه لجام

وجاء الواعظ فتلا على قومه من آيه :

قضى الله أن الجرم للجرم باعث ورب بريق شب منه ضرام
فلا تحسبن الشر فرداً فإنه توام إذا جد الردى وتؤام
وللشر عدوى كالوباء وعدوة هو الشر فى هذى النفوس سقام
فلا تقصدن بالشر نفساً بريئة فقد ينتحيك الشر وهو سهام
وإنك لا تدرى بما الشر واقع وفى أى دار للمصاب مقام
فأنت قسيمى فى اتقاء مصابه وإنا لأكفاء عليــه كرام
ألا إن درء الشر عنك رهينة بدرئك عمن كان منك يضام
فلا تعد مظلوماً ولا تعد ظالماً فكل عرام يقتفيه عرام

أى أن كل شراسة وحدة تتلوها شراسة وحدة ، فهى متولدة منها .

---

(١) هذا البيت وسابقه نقل عن (الجريدة) .

(٢) إيكاروس : جـ٥ ص٤٢٥ من ديوان شكرى الجامع .

(ب) الفضيلة :

تناول « شكرى » الفضيلة ممثلة فى عدد من مظاهرها :

ففى قصيدته (النعمان ويوم بؤسه) حكى قصة « النعمان بن المنذر » ملك الحيرة ، واستقباله « حنظلة الطائى » فى يوم بؤسه ، وهو اليوم الذى مات فيه نديمان له حزن لهما حزناً شديداً ، وكان لحنظلة سابقة فضل على النعمان ولكنه كان قد آلى ألا يعرض له فى هذا اليوم أحد إلا ذبحه على قبر نديميه ، فاستمهله حنظلة حتى يودع أهله ، فطلب إليه النعمان أن يقيم عنه كفيلا ، فكفله « قراد بن أجدع الكلبى » مدة عام ، ومضى العام ، وكاد قراد يقضى بوفائه ، لولا أوبة حنظلة فى آخر لحظة(١) . والمغزى من هذه القصة فى انتصار الوفاء ، فقد وفى « قراد » وقدم حياته فداء لوفائه ، ووفى « حنظلة » وسعى لحتفه بظلفه بعد أن أتيحت له النجاة ، وثاب « النعمان » الى رشده وعرف لؤم سنته السالفة فأبطلها وهو لون من الوفاء للحق .

وفى قصيدة (الرحمة) التى نقلها « شكرى » من « شكسبير »(٢) ، أوضح أن الرحمة فضيلة اختيارية ، وأن فيها طهارة القلب وكسر شرة الخطب ، وأنها ألزم للحاكمين من تيجانهم وصولجانهم ، وأنها حين تمزج بالعدل تؤهل صاحبها لرضا الله الرحمان الرحيم .

والرحمة « شكرى » تهدى إلى صحة الرأى ، بينما يضل غلظ الكبد ذكاء المرء فيعزب عنه الحق ولا يتبينه (٣) . و « شكرى » فى هذا متأثر بمهنته كمعلم .

والرحمة عنده تسع الكون كله ، وعلى المرء منا أن يضع نفسه فى مكان الآخرين

---

(١) القصيدة بالجزء الثانى : ص١٤٢ من ديوان شكرى الجامع ، والقصة مفصلة فى مجمع الأمثال للميدانى ج١ ومعجم البلدان ج٦ والمستطرف من كل فن مستظرف ج١ والمحاسن والأضداد .

(٢) القصيدة بالجزء الثالث : ص٢٥٩ من ديوان شكرى الجامع ، وهى منقولة من رواية (تاجر البندقية) . ولنا حديث آخر عنها .

(٣) الرحمة تهدى إلى صحة الرأى:ج٢ . ص١٩٣ من ديوان شكرى الجامع

ويلتمس العذر لسلوكهم وفعالهم فيما يجنى القدر عليهم(١) :

تعلمنى الأقدار أن أرحم الورى ... فقلبى لكل العالمين رحيم
وأنظر فى نفسى وأعرف عذرهم ... على شرهم . داءُ النفوس قديم
وأن جميع الناس أهلى وإخوتى ... وإن كان فيهم جارم وذميم
فياويح هذا الخلق مما يصيبهم ... مقادير يتلوها أذى وهموم

وكل إنسان فى الوجود يستحق أن ينال الرحمة ، لأن الإنسان إما أسير الشر ، أو موءود فى قوته ، أو واقع فى سقم نفسه ، أو عاجز ، أو عان يتمنى الموت ، أو مستهلك نفسه تسخيرا للعيش واجدا غنيا كان أو معدما فقيرا ، فالحياة كلها أليمة كمستشفى السقام لا ترحم أحدا :

فوا رحمة للمرء من سقم نفسه ... وكل الذى يبغى الشرور سقيم
ووارحمة للمرء من عجز نفسه ... هو العزم - إن حال القضاء - عقيم
ووارحمة للمرء إن بات عانيا ... يحن إلى ود المنى ويحوم
ووارحمة للناس من سخر عيشهم ... وسيان فيهم واجد وعديم
حياة كمستشفى السقام أليمة ... فيسقم فيها أشيب وفطيم
حليق بنا أن يرحم المرء صفوه ... فكل لكل عاذر ورحيم

والإحسان عند « شكرى » (٢)

كم يضىء الاحسان فى عالم الشر ضياء المصباح تحت الظـلام
فيه بر لكل داء ، ولو كان عقاما ، جم الأذى والعرام

ويقصد باضاءة الاحسان عالم الشر : رجحانه على العدل فى ميزان الفضيلة ، واستلاله

---

(١) وارحمة للناس : حـ ٤ . ص ٣٥٠ من ديوان شكرى الجامع
(٢) الاحسان . جـ٢ ص ١٨٩ من ديوان شكرى الجامع

السخيمة بأسرع مما يفعل العدل ، ولذلك يمكنه أن يشفى الأحقاد ، ويمتص الضغائن ، وما اليها من أدراء الانسانية .

والصبر عنده كفيل بتغيير وجه الشر ، ونزع الأسى ، وخضد شوكته ، وهو مظهر إيجابى للفضيلة ، وليس عند التحقيق سلبيا كالحزن(١).

والفضيلة فى رأى « شكرى » فى الفطرة السليمة لا فى المظهر الاجتماعى ، وفى حساب هذين العاملين قد تفضل العاهر وتدنس المخدرة ، كما يقول :(٢)

كم تحت مئزر ذات الخدر من دنس	وفى ابتذال ذوات العهر من خفر
إن الفضيلة لا يودى بها خلق	قضى به العيش فى حال من الغير
حسب الكريم إذا ما غاب عن دنس	ألا يسب ذوات العهر بالنظر
فقد تخون ذوات البعل آمنها	وقد تخون الألى ظلوا على حذر

والفضيلة فى بيته الثانى هى الفضيلة فى معناها العام ، لأنها لو أريد بها العفة لم يستقم المعنى .

(ج) الجمال :

الجمال عند « شكرى » هو بهاء الحياة ، وأنس النفوس ، وسحر الربيع ، وعرامة الشباب ، والكون فى نظره ملىء بالجمال ، وقيمته فى تجدده فى كل آن ، فيحلو من أجله العيش ، ويلذ(٣):

---

(١) اصبر : ج ٦ ـ ص ٤٨٢ من ديوان شكرى الجامع .

(٢) العهر والخدر : ج ٢ ـ ص ١٧٥ من ديوان شكرى الجامع ، ونشرت فى « الجريدة » : ١٩١٠/٦/٤ تحت عنوان (ذوات العهر وذوات الخدر) .

(٣) بهاء الحياة : ح ٨ ـ ص ٦٦٨ من ديوان شكرى الجامع . ونشرت فى مجلة الأبحاث البيروتية : حزيران (يونيه) ١٩٦٠ . ولنا اليها عودة .

كل آن يجـدد الكون وجها   من حلاه يحلو إذا الرث ملا
لذة العيش فى التقلب فى العيش   ونيـل الجـديد خلوا محلى

وبهجة العيش فى أن يكون عمر الجمال قصيرا ، وأن يقيم فينا قليلا ، فانه لو دام هان وقل ، كما تهون أمور المعاش الرتيبة ، وهذا أدعى لنسيانه أو إهماله ، بينما زواله بعد عمر قصير يجعل النفس أحرص عليه ، وعلى الامتلاء منه ، ويجعله أشهى لديها وأغلى ، لارتقابها فناءه ، فهى لا تفلته :

بهجة العيش أن يكون قصيراً   يرخص العيش حيث ران وظلا
بهجـة العيش فى زوال بهـاء   مـلأ النفس طرفة ثم ولى
بهجـة العيش أن يقيم قليـلا   لو يدوم الجـال هان وقلا
لو يدوم البهـاء ماحن طرف   واشتهى القلب شكلـه وتملى
وإذا خافت النفوس على فا   ن تحـلى ، وكان أشهى وأغلى

ويبحث « شكرى » فى قيمة الجمال الاجتماعية ، ويتساءل فى قصيدته (الحق والحسن)(١) عن الجمال فى الطبيعة ، والأحياء ، والفنون ؛ أهو مخدر يجعل الحياة لذيذة مقبولة على ما هى عليه ، فتفتر همم الناس عن إصلاحها ، وتلهيهم عن إزالة نقائصها واختلال نظمها وأوزارها ـ أم أنه منشط دافع ، يعين على استئناف الجهاد فى سبيل صلاح الحياة ، وأنه لولاه لانتفت الرغبة فى الاصلاح ؟ وقد أجرى « شكرى » قصيدته هذه فى أسلوب الاتهام والحكم ، وتولى هو اتهام الجمال أو الحسن بامتصاصه نشاط الحياة فى الانسان والعشق والغرام واللهو :

رمى بالنسل للآفات طـرا   نشـاوى لذة لا الواجبـات
ورَنْقٍ فى منـاقع آسنـات   ألذ مع الغـــرام من الفرات

---

(٤) الحق والحسن : حـ ٨ ـ ص ٦٢٣ من ديوان شكرى الجامع .

وحيث ترى نعيم الحسن داء ترى فقد النفوس الآيات
وهل ترجوه لاستصلاح أمر صريع عقار حسن الفاتنات
فإن الحسن يلهى المرء عما يحاول من صلاح الحادثات

ودافع الحسن عن نفسه بأنه : الأمل فى طريق الانقاذ ، والحق المنشود ، والمثل الأعلى من الأزل إلى الأبد ، والحادى الذى يهدى الطريق ويعين عليها ، والصبر الذى يودى بالنحس ويسعد فى الهموم والكروب ، والحب الذى يحيى الكون :

أنا الأمل الذى لولاه كانت حياة المرء شراً من ممات
أنا الحق الذى تبغى جداه وتنشد كونه فى الكائنات
أنا المثل الأجل ، إلىّ مرقى خطا الراقين من ماض وآت
أنا الحادى الذى يحدو نفوساً فتطرب طربة المستوفزات
أنا الصبر الذى يودى بنحس ويسعد فى الهموم المضنيات
أنا الحب الذى لولاه كانت وجوه الكون أشبه بالرفات

وجاء الحكم : لا مراء فى أن للجمال كلا الأثرين ، بيد أن صلاح الحياة فى أن يأخذ الناس بأسباب الأثر الدافع المنشط ، ليعينوا الجمال على أداء وظيفته ، وأن يتخلصوا من الأثر الأول المخدر ، ما استطاعوا ؛ لكيلا يلهيهم عن تطلب الحياة المنشودة :

فلما أن تبدى منه سحر أضاء بنوره وجه الحياة
ولما أن تبدى منه سحر أعاد النفس فى مثل السبات
خشعت وما ملكت قياد نفسى وقلت : الحق حسن لو يؤاتى
وإن لم يزو نفس المرء عما يحاول من صلاح الحادثات

وهذه القيمة الاجتماعية للجمال إلى جانبها قيمة فنية ، أداها إلينا « شكرى » فى

قصيدته (الجمال والعبادة عند قدماء اليونان)[١] ، فشهد بأنهم مجدوا الجمال فى تماثيلهم ومعابدهم ، وخصوه بإلهة[٢] عبدوها وحاطوها بالرعاية والعناية ، واستلهموها الحب والشعر والحق، ودانوا لها جميعاً ، ولم يزر بالحق حبهم للجمال؛ « فالحق والحسن إن فكرت سيان » .

ولعله بهذا يشير إلى أن الجمال يستدعى الاتساق والانسجام ورعاية النسب ، وكل هذا حق .

(١) حـ ٢ — ص ١١٢ من ديوان شكرى الجامع .

(٢) الآلهة فينوس (VENUS) وكثيرا ما كان شكرى يتردد على تمثالها بلندن ، انظر المقطم : ١٩٣٤/٥/٢٧ .

الفصل السابع

حكمة الحياة

الحياة مليئة بما يوحى بالحكمة ، ونحن نرى الأخلاق تحكم الحياة فعلا ، فنعرف الحكمة فى ذلك ، ونتبصرها ، وقد نقبلها وقد نرفضها فى أنفسنا بالفطرة ، إلى أساسها المنطق الشخصى ، أو المنطق الاجتماعى ، دون أن نبين عن دواعى القبول أو الرفض ، فإذا ما أتيح للواحد منا أن يحلب الحياة أشطرها ، ويستبصر بحقائقها ويمخضها مخض البخيلة ، ويستخرج من جزئياتها كليات تلخص نواميس الحياة أو تصور الحقائق المألوفة ، أو تدل على طبائع الأشياء ، أو تضىء دخائل النفس الإنسانية ، فهذا هو الحكيم ، وكلياته هى الحكمة .

وحسبنا من الشاعر أن يطلعنا على خواطره وتجاريبه ، فلا نتطلب منه رأيا فلسفيا أو حكما أخلاقيا ، وإنما يكفيه أن يسهم بحكمته فى إيقاظ أفكارنا ، وفى إعطائنا الدليل عما نحسه بالفطرة ، وفى هدايتنا بطريق غير مباشر .

وقد شاعت الحكمة فى اللسان العربى فى شعر الشعراء من أمثال : زهير بن أبى سلمى : وعدى بن زيد فى الجاهلية ، وأبى العتاهية والمتنبى وأبى العلاء فى العصر العباسى ، وإن اختلفت مصادر حكمتهم ومقاييسها ومناحيها ، بحسب اختلاف شخصياتهم وبيئاتهم ،

وقد سار « شكرى » على هذا الدرب ، وأسهم فى « حكمة الحياة » إسهاما ، دل على بصره بالحياة ، وإحاطته بخلجات النفس الإنسانية ، وكان لنا منه شعر خالص للحكمة ، وحكمة مبثوثة فى أبواب شعره جميعا ، اعتقادا منه أن(١) حكمة الشاعر تبدو فى كل

---

(١) مقدمة الجزء الرابع ص٢٨٧ من ديوان شكرى الجامع

قسم من أقسام شعره ، سواء الغزل والوصف والرثاء... الخ ،.. فإن شعر الشاعر - مهما اختلفت أبوابه - ينبىء عن نصيبه من التفكير ، وحكمة الشاعر تجاريبه وخواطره فى الحياة ، تلك الخواطر التى ينضجها الشعور والتفكير .

وقد رأينا شعره الخالص لخواطره من الكثرة وسعة المجال بحيث نخصص له هذا الفصل فى ختام حديثنا عن شعر التأملات ، وسنقتصر على إعطاء نماذج من هذه الخطرات فى عدة مجالات :

اولا — فى مجال علاقة الانسان باصدقائه وخلطائه

— الابقاء على المودة قد يدعو إلى مدارة الصديق المنصوح عند نصحه :

ورب خليل لا أجود بوده ... أراه على العلات وهو حميد(١)
أناصحه جهدى فيحسب أننى ... أريد به شراً ولست أريد
فصرت أداريه وإنى لمشفق ... إذا ماطويت الرأى وهو سديد
مخافة أن يقضى الأمور بضدها ... فيدركه من دونهـــن قعود

— الأخوة يغذوها الشوق الصحيح فإن لم يغذها فهى إلى جفاء :

خليلى والإخاء إلى جفـــاء ... إذ لم يغذه الشوق الصحيح(٢)

— الصحبة فيها مرارة أحياناً :

يقولون : الصحاب ثمار صدق ... وقد نبلو المرارة فى الثمار

— الاحساس بالغربة بين الأهل والعشيرة إحساس مؤلم قاس :

بــكائى أننى أعدو غريبا ... وحولى معشرى وبنو ودادى

---

(١) النصيحة : حـ١ص٥٠ من ديوان شكرى الجامع

(٢) هذه الخاطرة وما بعدها من قصيدة (كلمات العواطف) ذات القافية المرسلة : حـ١ ص٨٦ من ديوان شكرى الجامع

— قيمة الانسان في موطنه ، ويصور ذلك بقوله :

حياتي بين أعدائي ممات   وموتي بين أحبابي حياة

— الصحبة قد تكون رياء ، ظاهرها الود وباطنها البغض . قال ودل على إيعائه :

ورب مصاحب حلو اللقاء   سقيم الصدر مسموم اللحاظ

كبعض الزرع تحسبه مريئا   وتحت بهائه السم المميت

وهو في هذا ينظر إلى قول من قال :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة   ويروغ منك كما يروغ الثعلب

— في إكرام اللئيم إهانة له لأنه لا يقوم بحمل الحمد :

إذا أنت أكرمت اللئيم أهنته   بفعل حميد ناقـــد لفعاله(١)

يرى الحمد عبئا لا يقوم بحمله   فكيف يرد الحمـد غدر نباله

والفكرة والقالب مسبوقان (إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ...) وقد زاد « شكري » هذا التعليل .

— أننا ألفنا استحضار زلات الأحياء ، فإذا مات صديق نسينا هفواته ، فنظنه كان خيرا من الصديق الحي ، ولكن لو رجع الميت إلى دنياه استأنفنا اتهامه ، وعددناه كذوبا في وده :

ننسى عداء الذين ماتوا   والحي يقـــلى بزلة(٢)

فنحسب الميت ذا وفاء   نبـــكى عليه بحرقـة

ولو يعود الدفين حيـا   من بعد نشر ورجعة

لصـــار في وده كذوبا   وعاد يـنى بظنـــة

---

(١) إذا أكرمت اللئيم أهنته : جـ٢ ص١٩٨ من ديوان شكري الجامع

(٢) صداقة الأموات والأحياء جـ٣ ص ٢٣٢ من ديوان شكري الجامع

— الجاملات فى الأحزان خالصة الود ، وغيرها تصنع ونفاق :

قد وجدت الصدق فى ود الأسى مقة اللذات كسب ونفاق(١)

ثانيا : فى مجال تكييف الانسان للحياة :

— اليأس ضار ، يثنى عن طلب العلا :

واليأس إن يعرض لعزمة عازم بلغ الصميم وحال من أن يعملا(٢)
كم طالب وجد التجهم مغنما حتى ثناه اليأس عن طلب العلا

— الخضوع للنوائب ينيل الرغائب :

تطامن للنوائب إن تمادت فلولا الحزن ماعرف السرور(٣)
ولولا الجدب المنحوس يعدو علينـــا مااستقام لنا النضير

— ينبغى أن نكون أقوى من الزمان ، فلا نشكوه ونشكر خطوبه ، وإنمـا نحتقره :

أعيذك من شكوى الزمان فإنها تمر حياة المرء وهو طلوبها(٤)
فأحسن من شكوى الزمان احتقاره إذا عدوات الدهر غالت خطوبها

— العيش يتطلب الجرأة والثبات والاستقرار ، وينأى عن الغمر الذليل الهيابة :

إنما العيش أن تكون جريئا ليس ترضى الحياة غمرا ذليلا(٥)
وتلين الحياة للثـــابت الوا دع ، لامن يخافها أن تهولا

وقد نظر « شكرى » إلى قول « بشار » :

---

(١) ود الأسى : حـ٨ ص ٦٧٠ من ديوان شكرى الجامع
(٢) ضرر اليأس: حـ١ ص٤٠ من ديوان شكرى الجامع
(٣) من قصيدة كلمات العواطف
(٤) شكوى الزمان : حـ٢ ص١٩٧ من ديوان شكرى الجامع
(٥) هذه الخاطرة ومابعدها من قصيدة (حكمة التجارب) حـ٣ ص٢١٤ من ديوان شكرى الجامع .

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقول « سلم الخاسر » :

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور

وقول « أبى العلاء » :

تناهبت العيش النفوس بغرة   فإن كنت تسطيع النهاب فناهب

— عليك أن تلين لزمانك فاذا لان لك فأفد منه :

ثم لن للزمان ما اشتـــد   واجعله إذا لان نجعة ومقيلا

والمعنى مأخوذ من قول العرب : (لا تكن صلبا فتكسر ، ولا تكن لينا فتعصر). وقول معاوية : (لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، فإذا شدوا أرخيتها ، وإذا أرخوا شددتها) ، ويزيد « شكرى » أنه يجب على المرء أن يفيد من زمانه إذا لان له .

— أننا ما زلنا مشدودين إلى الماضى ، بدليل أننا ندافع عنه بالحق وبالهوى ، وتلك غفلة عن طبيعة التطور :

أخذنا عن الماضى قليلا من النهى   وأكثر ما نلنا الهواجس فى النفس[1]

يدافع عنه المرء بالحق والهوى   ويسعى له الأضداد ندبا إلى نكس

غفلنا ونام الهـامدون وفوقنا   نجوم الدجى زهر على قبة الرمس

ثالثا . فى مجال حظوظ الناس

— الرياء يقدم اللئام على الكرام :

بكانى أن أرى رجلا لئيما   يقدمه الرياء على الكريم[2]

---

(١) قيد الماضى : جـ ٨ ص ٦٦١ من ديوان شكرى الجامع

(٢) هذه الخاطرة وما بعدها من قصيدة (كلمات العواطف)

— الحر تضيق به دنياه ، فتلفظه :

أرى الدنيا تضيق بكل حر فتلفظه كما لفظ البصاق

— من الناس من يبغض المجد إذا رآه خلوا من الأبهة :

يطلب المجد كي يصح به العيش وقد يبتغيه للفخر باغي(١)
فاذا مارآه خلوا من الفخر طواه عنه القلى والتنائي

— الحياة قمار ، من يظفر يرض ، ومن يخسر ينقم

إني رأيت المساعي في مصادرها والناس ما بين مهموم ومسرور(٢)
فقامر ظافر راض بقسمته وآخر ناقم فعل المقادير

والعيش كالنرد ترمى غير محتكم فيطلع العيش حرمانا وإنهابا(٣)

الحظ أعمى لدى من لم ينل أربا وهو البصير لدى من فاز بالنعم(٤)

— الشهرة بعد الموت مثل الصيت في الزمن الغابر ، كلاهما وهم في منطق الحياة :

ما أحسن الصيت لو ان الفتى يزاد عمر الصيت في عمره(٥)
أما ولا نفع يرجى به وأغنية الميت في ذكره
يهدم من لذات أيامه كيما يشاد الذكر في قبره
وما رأينا بائعا من غد بما مضى بالذكر من دهره

---

(١) المجد والفخر : ج٢ ص ١٩٢ من ديوان شكرى الجامع
(٢) الحياة قمار : ج ١ ص ٧٠ من ديوان شكرى الجامع .
(٣) سؤر العيش : ج٦ ص ٤٥٠ من ديوان شكرى الجامع ،
(٤) البصير الأعمى : ج٨ ص٦٧٠ من الديوان الجامع
(٥) الشهرة عند الموت : ج ٦ص ٤٧٣ من ديوان شكرى الجامع

بشهرة من أول غابر ... ليومه المعنق فى فره
سيان صيت قد مضى عهده ... والمقبل المرجو من أمره

وهذا ترديد لقول أبي العلاء :

أأرغب فى الصيت بين الأنا ... م وكم خمل النابه الصيت
وحسب الفتى أنه مائت ... وهل يعرف الشرف الميت

رابعا : فى مجال حركة الحياة :

— الترف مفسدة مع أنه مظنة الصلاح ، والفقر مدعاة للتحرك نحو العلا مع أنه مظنة الضياع :

وكم فى العز مفسدة لقوم ... وفى الأرزاء إعلاء لناس(١)

— الشدة نهايتها الفرج ، وفى الظواهر الطبيعية مايقنعنا بهذا :

وكم من كربة هجمت علينا ... فلما استحكمت جعلت تزول(١)
وإن القر يتبعه حرور ... وجنح الليل يفريه الهلال
وإن العود بعد العرى يكسى ... ومحل الأرض يسعده السحاب

— الرزايا - وهى مظنة الرذائل — لها فضائل كثر ، فطالما نبهت الغافلين ، ودعت إلى معاناة طوارق الأمور :

رعاك الله ياوقع الرزايا ... فرب فضيلة لك لاتذال(١)
تعهدت المنى بالشك حتى ... أقمت الغافلين على انتباه
وعلمت العظيم وإن تأبى ... معاناة الطوارق بالدواهى

— العيش يدفع الإنسان إلى الأمل فيأمل فلا ينفعه الأمل ، ويدفعه إلى اليأس

---

(١) من قصيدة (كلمات العواطف) .

فييئس فلا ينفعه اليأس ، ويرى فى اليأس أملا ، وفى الأمل يأسا ، ويرى الأمل يزجى إلى اليأس ، واليأس يزجى إلى الأمل :

قال داعى الهم قولا صادقا   إنما نحن عبيد للمنى(١)
عجبا للدهـــر فى أحكامه   يجلب النعمة فى داعى الأسى
عجبـــا ليس يروى غـلة   وقلى . والعيش لايخشى القلى
خلق الإنسان كى يشقى بما   يبتغى فى نيله بره الشقـــا
ولو ان اليأس بره للجوى   لم تكن فيـه دواع للجوى
ما أتيح اليأس إلا شقـوة   إنما اليأس سبـيـل للمنى

— تحقيق كل الآمال يفضى إلى الشقاء :

لو أدرك الانسان آماله   وصابه منها كقطر المطـر(٢)
ولم يعد يعـرف ما يبتغى   ولم يجد فى العيش ما ينتظـر
لـكان أشقى الناس فى عيشه   حتى تقول النفس : أين المفر ؟

خامسا : فى مجال الوسائل :

— النجاح علامة النصر ، وليس دائما علامة السلامة :

ويارب نجح يسلب المرء رشده   ويبدى خصالا منه تقتل أو تزرى(٣)

والنجح ليس بخـير مكتسب   كم نجحة شر من الفشـــل(٤)

— لذات العيش تفقد قيمتها بتناولها :

ولذة العيش أثمـــار مهدلة   تبقى رمادا إذا ذيقت وترابا(٥)

(١) اليأس داء والأمل داء : ج ٢ . ص ١٤٤ من ديوان شكرى الجامع .
(٢) العيش والرجاء : ج ٥ . ص ٤٢٨ من ديوان شكرى الجامع .
(٣) فخر الناجح : ج ٨ . ص ٦٧٢ من ديوان شكرى الجامع
(٤) الحياة والعمل : ج ٢ . ص ١١٣ من ديوان شكرى الجامع .
(٥) سؤر العيش : ج ٦ . ص ٤٥٠ من ديوان شكرى الجامع .

— أصبح العدل من الأمور الاعتبارية :

بنى آدم لا تذكروا العدل ذكرة ... فما العدل إلا ما ترون من الأمر (١)

— وعلى هذا أصبح الضمير (؟) ينشد هذا العدل الاعتبارى :

وكل ضمير بالمعاذير مولع .. ... إذا ما أتى ذنبا أحال على العذر
وقد يحسب الشر الوجيع فضيلة ... إذا خال فيه ما يلذ من الخير
وقد يحسب الشيء الحرام محللا ... إذا ظن فيه ما يصاب من التجر
وقد يحسب العدل المبين ظلامة ... إذا خاف منه ما يعاف من الضر (٢)

— وأصبح الضمير يخادع عن الحق :

وكل صديق إن رأى بك حسرة ... وكان بخير قال : حظك فى الصبر (١)
هو الصبر حلو للذى لا يذوقه ... فإن ذاقه فالصبر شيء من المر

— الانحياز يبدد الحيدة ، ويذهب بأب الحقيقة ، وقد صور ذلك فى صورتين : صورة من يجعل مآثمه نصب لحاظه ؛ فإنه يستمرئها ويعد المكارم خداعا ووهما ، وصورة من يجعل مكارمه نصب لحاظه - فإنه يغتر بها ، ويظن كل ما يأتيه من المكارم ، ولو صادم الحقيقة الأخلاقية :

إذا جعل الانسان نصب لحاظه ... مآثمه هانت عليه مكارمه (٣)
فييئس حتى يحسب الخير خدعة ... وينحل عنه صبره وعزائمه
وإن جعل الانسان نصب لحاظه ... مكارمه هانت عليه مآثمه
فيصبح مغرورا يتيه بخيره ... يرى أن كل الخير ما هو عالمه
وأن صفات السوء ما ليس ربها ... وإن فتكت أسيافه ولهاذمه

---

(١) من قصيدة (مرآة الضمائر) : ج ٣ ٠ ص ٢٣٥ من ديوان شكرى الجامع ٠
(٢) انظر أيضا قصيدة (آلة الضمير) : ج ٦ ٠ ص ٤٧١ من ديوان شكرى الجامع ٠
(٣) نظرتان فى النفس : ج ٤ ٠ ص ٣٥٧ من ديوان شكرى الجامع ٠

سادسا : فى مجال الخبرة :

— العلم يسهم فى تربية العزة . بينما الجهل يقعد بالنفس فى مرتبة الذلة و المهانة :

ويعلو الفتى بالعلم عن كل ذلة وكل جهول لو فطنت ذليل(١)

على قدر علم المرء عزة نفسه فأهل النهى فى الصاغرين قليل

— العلم سلاح القوة والمجد :

وما العلم إلا قوة واستطالة يحكمه أهل النهى فيصول

— العلم إذا ترف مضيعة للعقل :

وكم ترف للعلم والعز قاتل يزيل حميات النهى فتزول

— لا يحس الجهلاء ثقل الجهل ، ولكن يحسون سقم العيش وسوء الحال الذى سببه الجهل :

فيا من لغرقى أثقال الجهل ظهرهم وللجهل حمل فى الحياة ثقيل

كأن ظلام الجهل بين عيونهم ستار على ما يكرهون سديل

لقد أرمدت شمس العلاء عيونهم فطرفهم دون العلاء كليل

— إن الطبيب بطبه ودوائه ، لا يستطيع دفاع مقدور أتى :

وأعجز أوصاف الأطباء داؤهم ولم يشفهم من شرهم عمل النطس(٢)

— لا قيمة للرأى إذا لم يوضع موضع الاختبار :

فالرأى ميت والمعانى لقا إذا المساعى عين إصدارها(٣)

سابعا — فى مجال السعادة الفردية :

— السعادة لمن لم يفقد إيمانه بحياته الراهنة ، ولمن يستطيع تكييف ضميره مع الأحداث :

وطوبى لمن لم يزل مؤمناً بهذى الحياة وهذى الصور

---

(١) هذه الخاطرة وما بعدها من قصيدة (العلم وعزة النفس) ج ٥ ص ٤١٥ ديوان شكرى الجامع

(٢) قيد الماضى : جـ٨ ص٦٦١ من ديوان شكرى الجامع .

(٣) سبرغور الرأى: جـ٢ ص١٩٢ من ديوان شكرى الجامع .

وطوبى لمن أصلحت نفسه   بين الضمير وبين الغير(١)

ولعله فسر ذلك فى قوله : السعادة أن يصطلح المثل الاعلى والحياة على أدناسها(٢)

ثامنا — فى مجال العلاقات الاجتماعية :

— لا يرضى الناس أن تبدو غفوراً صفوحاً ولا شريراً :

إذا ما اغتفرت ازدراك الأنام   وإن جئت شراً فثأر بثأر(١)

— لا خير فى الناس بعد أن بدت منهم الخيانة :

أبعد الذى كان من نبوة الأنام وخون الرغيب الأغر

فويل لمثلك من غافل ، يرجى من الناس طيب الأثر

— لا بد من صلاح الحكام والشعوب ليصلح العيش :

لا يصلح الناس فى خلق وفى عمل   إلا إذا صلح السواس والأمم(٣)

— «كما تكونون يولى عليكم» :

وكيف يصلح سواس وشعبهم   والحاكمون على منهاج من حكموا

— الشعوب الطاغية تحل إهدار الحرمات :

أحل شعب قوى إن سطا وعدا   لقومه بينهم أن تهدر الحرم

— الناس على دين ملوكهم :

مرأى ومسمع ما السواس تفعله   به أحل الأسى والفسق والجرم(٤)

يعدى الأنام فرادى فى معيشتهم   الحرص والكذب والتقتيل والنهم

— الحروب وليدة الأثرة والأنانية :

---

(١) فى القافلة : وهى من القصائد التى نشرناها فى لحق ديوان عبد الرحمن شكرى .

(٢) خواطر مختلفة لشاعر كبير وأستاذ جليل : عكاظ ٩/٥/١٩٢٢ .

(٣) ثالة الحرب : وهى من القصائد التى نشرناها فى لحق ديوان عبد الرحمن شكرى .

(٤) وقصيدته (عتاب الملك حجر لأبنه امرئ القيس) ج٢ ص٢٠١ من ديوان شكرى الجامع قائمة على هذه الخاطرة ، وأضاف إليها أن كثيراً من الآباء أورثوا أبناءهم الذلة ، وكثيراً من الأبناء ألحقوا الذل بآبائهم .

يريدون منع الحرب ، والحرب سنة إلى أن تفيق النفس من إثرة النفس(١)

تاسعا : فى مجال الخير والشر :

— يتكافأ مقدار الربح المادى مع مقدار الخسارة الروحية :

إذا بلغ المرء الغنى كان خاسرا بنيل الغنى قدر الذى هو كاسبه(٢)

فيربح حالا لدنة الوجه غضة ويخسر شيئا خافيا عز كاسبه

— الحلال هو مالم يعد بالشر وغاب ضره ، والحرام هو ماعاد بالشر وحضر ضره :

إذا لم يعد بالشر ما أنت ناعم به فانتهزه ليس فيه حرام(٣)

وما كل ما يأتيك عفوا محللا ولا كل مالا يتتحيه ملام

ولكنها اللذات ما غاب ضرها حلال ، وإن هاب الحرام لئام

ونرى هذا المنطق منطقا شخصيا ، ولا يمكن قبوله على إطلاقه ، لأنه يعطى مقياسا اعتباريا للحلال والحرام ، فليس كل حاضر الضرر حراما ، وليس كل غائبه حلالا .

— العزيمة ولو فى ضلال أعظم من التردد شأنا :

لعزم ذوى العزم المضلل بالغ من الحزم مالا يبلغ المتردد(٤)

— وأصحاب هذه العزيمة أحق بالمدح من القاعدين عن السعى فى الخير :

وأصدق الناس عزما وهو ذو أمل فى الشر يبلغ منه كل ما بعدا(٥)

أحق بالمدح من مستضعف تعس مقلقل العزم لا يصمى الذى قصدا

يرجو الفضيلة لكن لا يعالجها ويطلب الخير لم يمدد له مددا

والمنطق فى هاتين الخاطرتين منطق شخصى اعتبارى أيضاً ، دعا « شكرى » إليه اقتناعه أن العزيمة المضللة خير من فقدان كل عزيمة(٦) ، وفى رأينا أن العزيمة فى الشر

---

(١) من قصيدة قيد الماضى حـ ٨ ص ٦٦١ من الديوان الجامع

(٢) ربح وخسران حـ٢ ص١٨٩ من ديوان شكرى الجامع .

(٣) الحلال والحرام حـ٢ ص١٣٣ من ديوان شكرى الجامع .

(٤) العزيمة المضللة حـ٢ ص١٩٢ من ديوان شكرى الجامع .

(٥) عزم فى الشر جـ٢ ص ١٩٣ (٦) انظر العزيمة بالجريدة ١٩٠٩/٩/٩

يجب رفضها من حيث مجراها فى الشر ، لا من حيث دلالتها على العزم .

— من جهل شر نفسه ظن كل فعاله عدلا وإن وقع منها الضرر :

ومن جهلت نفسه شره رأى أنه عادل إن أضر(١)

— يتساوى الناس جميعاً — خيرهم وشرهم — عند بلوغ النهاية الأبدية :

وخير الأنام كشر الأنام سيطوى وشيكا كطى الخبر

هذه نماذج من حكمة الحياة عند «شكرى» ، ولم نلم بها كلها . فقد كان همنا أن نعطى منها قدراً يكشف عن بصر الشاعر بأمور الحياة والنفس ، وقد رأينا علاقته بأصدقائه ومخالطيه ومجتمعه مردها جميعاً إلى مدى تكيفه الاجتماعى ، وهذا التكيف الاجتماعى أمر غير ثابت ، وغير مستقر ، وأساسه المنطق الشخصى فى معظم الأحوال ، ولا يمكن أن يقاس قياساً رياضياً ، وفى هذا تفسير ما وجدناه من اتجاهات الأمور المتعاكسة — والمتناقضة أحياناً — فالحياة قد تفرض الفطرة احتمالها كما هى ، وينشأ من هذا الفرض قبولها بقبول حسن ، ويكون احتمالها عبئاً ثقيلا ، بسبب العقد النفسية أو الاجتماعية ، فيكون من الحتم مناهضتها ، وهكذا كل متناقضات الحياة — وما أكثرها — والحكيم من يتسع ذهنه لكل هذه المتناقضات ، وقد اتسع لها ذهن شاعرنا .

---

(١) فى العاقلة — راجع النص فى «لحق ديوان عبد الرحمن شكرى» .

مصادر البحث ومراجعه

(أ) كتب بالعربية

١ — إبراهيم الحوراني : الحق اليقين فى الرد على بطل دروين - بيروت - ١٨٨٦ م

٢ — ابن عبد ربه : العقد الفريد - الجزء الثالث - بتحقيق محمد سعيد العريان - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - الطبعة الاولى - ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م

٣ — أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث - مكتبة النهضة المصرية القاهرة - ١٩٤٨ م

٤ — أنيس الخورى المقدسى : الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث - بيروت الطبعة الاولى - ١٩٥٢ م

٥ — جماعة نشر الثقافة : ديوان الاسكندرية - مطبعة المستقبل - الاسكندرية - ١٩٣٥ م

٦ — سلامة موسى : أحلام الفلاسفة - دار الهلال - القاهرة - ١٩٢٦ م

٧ — سلامة موسى : نظرية التطور وأصل الإنسان - المطبعة العصرية - القاهرة الطبعة الثالثة

٨ — د / طه حسين : مع أبى العلاء فى سجنه - مطبعة المعارف ومكتبتها - القاهرة ١٩٤٤ م

٩ — عباس محمود العقاد : ديوان العقاد - البوسفور بالقاهرة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م ومطبعة المقتطف والمقطم بمصر ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م - ومطبعة وحدة الصيانة والانتاج بأسوان ١٩٦٧ م

١٠ — عبد الرحمن شكرى : ضوء الفجر — (الديوان الأول) — مطبعة جرجي غرزوزي — الاسكندريه — الطبعه الاولى ١٣٢٩ هـ والثانية ١٣٣٣ هـ

١١ — عبد الرحمن شكرى : لآلىء الافكار — (الديوان الثاني) — مطبعة جرجي غرزوزى — الاسكندرية — ١٩١٣ م

١٢ — عبد الرحمن شكرى : أناشيد الصبا — (الديوان الثالث) — مطبعة جرجي غرزوزي — الاسكندريه — ١٩١٥ م

١٣ — عبد الرحمن شكرى : زهر الربيع — (الديوان الرابع) — مطبعة جرجي غرزوزى — الاسكندريه — ١٩١٦ م

١٤ — عبد الرحمن شكرى : ديوان الخطرات — (الديوان الخامس) مطبعة جرجي غرزوزى — الاسكندريه — ١٩١٦ م

١٥ — عبد الرحمن شكرى : الاعتراف — مطبعة جرجي غرزوزى — الاسكندريه ١٩١٦ م

١٦ — عبد الرحمن شكرى : الثمرات — مطبعة جرجى غرزوزى — الاسكندريه — ١٣٣٥ هـ

١٧ — عبد الرحمن شكرى : ديوان الافنان — (الديوان السادس) — مطبعة جرجي غرزوزى — الاسكندريه — ١٩١٨ م

١٨ — عبد الرحمن شكرى : الصحائف — مطبعة جرجى غرزوزى — الاسكندريه — ١٩١٨ م

١٩ — عبد الرحمن شكرى : ديوان أزهار الخريف (الديوان السابع) — المطبعة المصريه — الاسكندرية (١٩١٩ م)

٢٠ — عبد الرحمن شكرى : ديوان عبدالرحمن شكرى — (ديوان شكرى الجامع) بتحقيق نقولا يوسف — منشأة المعارف — الاسكندريه ١٩٦٠ م

٢١ – عبد الغفار مكاوى : سافو شاعرة الحب والجمال عند اليونان - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٦ م

٢٢ – د/ محمد السعدى فرهود : الاتجاهات الفنية فى شعر عبد الرحمن شكرى – مطبعة زهران – القاهرة – ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م

٢٣ – د/ محمد السعدى فرهود : لحق ديوان عبدالرحمن شكرى – مطبعة زهران – ١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠ م

٢٤ – محمد فريد وجدى : على أطلال المذهب المادى – مطبعة دائرة معارف القرن العشرين – القاهرة – ١٩٢١ م

٢٥ – د/مصطفى بدوى(مترجم) : الحياة والشاعر تأليف ستيفن سبندر – الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٦٥ م

٢٦ - مصطفى عبداللطيف السحرتى: الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث – مطبعة المقتطف والمقطم – القاهرة - ١٩٤٨ م

٢٧ - مصطفى عبداللطيف السحرتى: النقد الأدبى من خلال تجاربى - معهد الدراسات العربية العالية – القاهرة - ١٩٦٢ م

(ب) وسائل شكرى

١ – إلى فؤاد صروف : نشرت فى مجلة الأبحاث (البيروتية) عدد حزيران (يونيه) ١٩٦٠ م

٢ – إلى محمد رجب البيومى : سنة ١٩٥٨ – لم تنشر .

٣ – إلى نقولا يوسف : نشرت فى مجلة الأدب – أعداد يونيه ويوليو وأكتوبر ١٩٦٣ م .

(ح) مقالات شكرى

١ – فن أبى نواس مثال لطرب الفنان بفنه – الهلال – أغسطس ١٩٣٦ م

٢ – التفاؤل والتشاؤم – الرسالة – عدد ١٩٣٩/٥/٨

٣ – الشعر والثقافة – المقتطف – عدد يونيه ويوليو ١٩٣٩ م

(د) دوريات

١ – الأبحاث (البيروتية) : حزيران (يونيه) ١٩٦٠ م

٢ – الجريدة : ١٩٠٩ و ١٩١٠ م

٣ – الرسالة : ١٩٣٥ و ١٩٣٨ م

٤ – عكاظ : ١٩٢٠ و ١٩٢٢ م

٥ – المجلة الجديدة : نوفمبر ١٩٣٥ م

٦ – المقطم : ١٩٣٣ و ١٩٣٤ و ١٩٣٥ و١٩٣٦ م

فهرس الموضوعات

مطبعة الأمانة ٣ جزيرة بدران ـ القاهرة

أودع هذا المصنف بدار الكتب برقم ٢٦٨٩ لسنة ١٩٧٦